

من سرق المصحف..!!

فى الصوفية المتحركة وبعض أعلام الصوفية

محيى عبد المنعم

* ثوب الأمانة ممزق .. لماذا ؟!
* غـــلام الرهـــان .
* ارتفعـــت الشبهـــة .
* مـا قـدرى .. ومـا أنا ..!؟
* إقـتراب .. واغـتراب !!

فأينَ تذهبون ..!!





من سرق المصحف..!!

فى الصوفية المتحركة وبعض أعلام الصوفية

* ثوب الأمانة ممزق .. لماذا ؟!
* غـــــلام الرهـــــــان .
* ارتفعـــــت الشبهـــــة .
* مـــا قـــدْرِى .. ومـــا أنـــا ..!؟
* إقـــتراب .. واغـــتراب !!
* فـــأين تذهبـــــون ..!!

محيى عبد المنعم

التوزيـــــع : **دار الرشـــاد**
العنــــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقـم الإيـداع : ٣٦٦٦/ ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : 4 - 87 - 5324 - 977
الطبــــــع : **عربية للطباعة والنشر**
العنـــــوان : ٧ ، ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ـ٣٢٥١٠٤٣
فاكـــــس : ٣٢٩١٤٩٧

الطبعة الأولى : ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م

مقدمة

كلنا نبكى فمن سرق المصحف !! .. وجدها الرجل فرصة سانحة لكي يعظ نفسه دون اتهام أحد بعينه ! ... ولأنهم سرقوا المصحف فلم يصدِّقوا المتهم حين أقسم : أنه لم يكشف عن كتف أنثى قط !! .. فالتهمة ملفّقة بشكل شيطانى لا فكاك منه ، وبطريقة تدعو للشك ، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستطع أن يَبت فى أمر هذه المسألة ؛ واكتفى بأن قال : إن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه ... فهل هذا يكفى لشفاء النفس المظلومة والصدر المكلوم !!؟ .. لا يكفي هذا بالطبع ! حتى تأتى البراءة من السماء .. ولكن هل كل إنسان تأتيه البراءة من السماء بالشكل الذى حدث ؟!.. مرارة الظلم تجعلك أكثر غربة ، وأنت غريب فى الأصل .. اللهم تفضّل علينا بعفوك إن لم نستحق رضاك يا ذا الجلال والإكرام .

محيى الدين عبد المنعم

الفهـــرس

الفصل الأول

من سرق المصحف !!



مَن سرق المصحف ؟ ! !

إنخرط الجميع فى بكاء مرير وصل إلى حد النحيب ، ولم يكن الرجل قد انتهى من مواعظه البليغة بعد ... لقد كان على موعد مع المنافقين ، ربما يكون قد تأخر كثيراً ، ولكنه سبق الزمن فى نفس الوقت ؛ ليقفز على الأسوار متخطياً حدود المكان ودقات الزمان .

لقد أفرغ ما فى صدره فى لقائه معهم . كان قد اعتاد أن يقرأ كل يوم فى مصحف له بالمسجد ، وبعد أن ينتهى من قراءة ما تيسر له يترك المصحف عائداً إلى بيته مهموماً ، حائراً ، قلقاً ، خائفاً ، مترقباً ... وفى ذات يوم عاد إلى المسجد الذى لا يكاد يبارحه إلا منصرفاً لبيته ، فإذا به لم يجد المصحف .. لم يندهش الرجل ، ولم يحاول البحث كثيراً ، فالأمر يسير وهين ولا يحتاج إلى تدقيق ... فالمصحف سُرق ، والأمر كذلك وليس هناك مَا يدعو للسؤال !! .. أدى الصلاة ، واستغفر كعادته ، وبدأ الناس يتحلّقون حوله كما يفعلون بعد كل صلاة عشاء فى المسجد الكبير .. الجميع يتبارى فى الفوز بأقرب مكان لرؤية الرجل والاقتراب منه تبركاً وحباً ، والرجل يحافظ على إلقاء مواعظه التى لا تنقطع ... وبدأ الرجل .. لم يكن مستعداً كما هو اليوم .. نفس مهيأة لتزيح عن صدرها آلام الحرج الذى طالما منع الرجل من البوح بالكثير .. لقد أعطوه الفرصة ليقول ما كان دائماً ينازع نفسه دائماً فيه ؛ إنطلق لسان حاله يشكو الناس للناس .. يبين لهم ما هم فيه

من وهم وخداع مع أنفسهم .. يقترب منهم .. يعظهم .. يجذبهم إليه .. أخذ بمجامع القلوب .. ليقترب من المفاجأة التى لم يتوقعوها .. وقبل أن يصارحهم قال : " ألم يفكرٌ بن آدم ثم يتفهم ويعتبر ، ثم يبصر ، ثم يعقل ويتفقه حتى يعلم ، فيتبين له أن لله حلماً به يخلق الأحلام ، وعلماً به يعلّم العلماء ، وحكمة بها يتقى الخلق ويدبر بها أمور الدنيا والآخرة ، فإن ابن آدم لن يبلغ بعلمه المقدور على الله الذى لا مقدار له ، ولن يبلغ بحلمه المخلوق حلم الله الذى به تخلق الخلق كله ... الجميع فى بكاء يشبه العويل .. توقف الرجل ، وأشار بكلتا يديه وقد امتدتا فى استقامة كأنه يدفعهم بهما وصاح قائلاً : كلنا نبكى فمن سرق المصحف ؟!!

صمت الجميع ، وتوقف النحيب فاقترب منهم أكثر قائلاً : يا هؤلاء إن الكلب إذا طُرح إليه الذهب والفضة لم يعرفهما ، وإذا طُرح إليه العظم أكبّ عليه ، كذلك سفهاؤكم لا يعرفون الحق !! .

كلمات موجزة ولكنها نجلاء تنفذ فى الصدور ، ولكن أى صدور ! وتنغرس فى القلوب ، ولكن أى قلوب ! وتعيها الآذان .. ولكن الآذان الواعية .. ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ ق/٣٧.. و ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ ... يواصل مالك بن دينار حديث القلوب لعله يجد من يتدبر ، ولابد أنه وجد فيقول : (إن الصدق يبدو فى القلب ضعيفاً ، كما يبدو نبات النخلة : يبدو ضعيفاً

عفناً واحداً ، فإذا نتفها صبى ، ذهب أصلها ، وإن أكلتها عنز ذهب أصلها ، فتُسقى فتنتشر ، وتُسقى فتنتشر ، حتى يكون لها أصل أصيل يوُطأ ، وظل يُستظل به ، وثمرة يُؤكل منها ، كذلك الصدق ، يبدو فى القلب ضعيفاً ، فيتفقّده صاحبه ، ويزيده الله تعالى ، ويتفقّده فيزيده الله تعالى ، حتى يجعله الله بركة على نفسه ، ويكون كلامه دواءاً للخاطئين . فالرجل إذن يأخذنا بالتدريج فيحاول إفاقة ذلك الباكى بسبب وبدون سبب ، ثم يحاول بعد إفاقته تقريبه من الحقيقة التى اختلطت على الناس ، فالأكثرية ترى الحقيقة من وجهة نظرها فقط ولا تعلم ، أو تتجاهل عن عمد إطلاقها على عمومها .. فالحقيقة لا تتجزأ وهى من الصفات العليا الغير قابلة للجدال .. ثم يُبشِّر الرجل الناس والعباد بأن الصدق وإن بدا ضعيفاً فى القلوب فإنها لحكمة لا يعلمها إلا الله .. فربما أراد الله أن يرينا كيف ينمو الصدق ثم يُسْتَظل به ، ثم يكون بركة فى النهاية ولا ينزعها الله من عبد مؤمن .

وبعدما يستشعر الرجل أن الناس قد انغرس فى صدرهم حلاوة الصدق واليقين به ، يبدأ فى الحديث إلى قلوب مبصرة واعية ، وأذآن صاغية قد انفتحت لتلتهم كل ما يُقال .. فيبدأ بفتح الباب والحديث عن أهم ما يسعى إليه الإنسان وهو الرزق الذى به يقتات ، وعليه وبه يحيى وحتى الممات .. فيقول : " وددت أن رزقى فى حصاة أمتصُّها ، لا ألتمس غيرها حتى أموت " .. سبحان الله .. ما هذا !! هل من أحد منا يعى هذا الكلام .. وهل من أحد منا يستطيع أن يُقدّره حق قدره !! .. فأين

تذهبون!! ماذا يمكن أن نعتقد بعد هذا الكلام .. وأنت عزيزى القارئ وأنا معك، نفكرّ الآن فى هاتين الكلمتين .. فأين تذهبون ! .. لأنهما جاءتا فى كتاب الله ليظهرا الحال التى يمكن أن يكون عليها الإنسان حينما يجد نفسه وجهاً لوجه أمام الحقيقة التى لا مفر منها .. ثم تبعها الله بقوله : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۞ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ** ﴾ التكوير ٢٧/٢٨.. إذن فالمقصود والمراد فى النهاية وبعد أن يكون كل شئ قد قضى ما أراد الله منه أن يقضيه .. يكون المراد .. مَن مِنا شاء أن يستقيم !!؟ .. وإن كان ذلك موقوفاً بمشيئة الله ، ولذلك أتمها الله بقوله ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ التكوير/٢٩.. فالقول إذن ﴿ **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ** ﴾ التكوير/٢٨ مرهون بمشيئة الله وليس خروجاً عليها أو التفافاً حول المشيئة العليا ... ويواصل العارف الزاهد حديث القلب فيقترب أكثر وأكثر من القلوب المفتوحة فيداعبها ليرى رِدة الفعل منها .. فيتحسس ويقترب ثم يداهمها بما لا تحب ولا تهوى ويتفحص الوجوه ، ويقرأ ما عليها .. فيقول : " خلطت دقيقى بالرماد ، فضعفت عن الصلاة ، ولو قويت على الصلاة ما أكلت غيره " . ويحاول إقناع الناس بأن ما يحدث حقيقة وأنهم لو استساغوها لوجبت عليهم جميعاً دون تردد فى تفكير .. فيقول حزم وقد دخل عليه يوماً : " وجدت بين يديه أجرّه عليها رغيف شعير وملح عجين ، فقال : يا أبا عبد الله أُدنُ فكل ، فإن هذا مع العافية أطيب " .. فأين

تذهبون !! .. لازلت أكررها وسأذكرها كثيراً حتى لا ننسى أن حديثنا فى هذا الكتاب لا يخرج عن التذكرة والتذكرة لا غير .

يواصل الرجل حديثه مع الناس وعنهم دون كلل أو فقدان أمل فى الوصول بهم ومعهم ومن خلالهم إلى الحصول على ثمار الموعظة ، ولا ينسى أنه يعظ نفسه فى ذات الوقت .. فيقول : " مُذْ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ، ولم أكره ذمهم ، لأن حامدهم مُفرِّط ، وذامهم مُفرِّط ، إذا تعلّم العالم للعمل كسره ، وإذا تعلمه لغير العمل زاده " . .. ولأنه يتحدث إلى النفس فهو يحاول قدر المستطاع تهذيب النفوس ، وله فى ذلك موقف نأخذ منه العبرة والموعظة التى تُهدِّئ من حدة الطباع، وتُصْلِح من اعوجاجها ، حيث ذكر الأصمعى عن أبيه ، قال : مر المهلب على مالك بن دينار متبختراً، فقال : أما علمت أنها مشية يكرهها الله ، إلا بين الصفّين ؟ . فقال المهلب : أما تعرفنى ؟ قال مالك بلى : أوّلك نطفة مَذِرَةْ ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل لعَذِرة ، فانكسر المهلب ، وقال الآن عرفتنى حق المعرفة .

ودخل عليه يوماً فى المساء بعض إخوانه ، فوجدوه فى بيت مظلم بغير سراج ، وفى يده رغيف يكْدمه ، فقالوا له : أبا يحيى ألا سراج تبصر ، ألا شئ تصنع عليه خبزك ؟ فقال : دعونى فوالله إنى لنادم على ما مضى ، وقد كان إيدامه كل سنة ملحاً بفلسين . وكان كما سمعه السرى بن يحيى

يقول : إنه لتأتى عليّ السنة لا أكل فيها لحماً ، إلا فى يوم الأضحى ، فإنى آكل من أضحيتى . أما إذا اشتهت نفسه اللحم ، بعدما يصارعها ويمنعها ، فإنه يُقدّم طلب الأجر والصدقة على شهوة النفس ولذّتها ، يقول المنذر أبو يحيى : رأيت مالكاً ومعه كراع من هذه الأكارع التى قد طُبخت ، فكان يشمّه ساعة بساعة ثم مرّ على شيخ مسكين على ظهر الطريق يسأل الناس أن يتصدقوا عليه فقال مالك : هاه يا شيخ .. فناوله إيّاه ثم مسح يده بالجدار، ثم وضع كساءه على رأسه ، وذهب .. قال المنذر : ثم لقيت صديقاً له ، فقلت : رأيت اليوم من مالك كذا وكذا ، قال : أنا أخبرك ، كان يشتهى الكراع منذ زمان ويمانع نفسه منه ، فاشتراه اليوم ولكن لم تطب نفسه أن يأكله فتصدّق به ... شخصية نادرة فى الزهد والورع وتهذيب طباع النفس وكبح جماحها ، كان لشهوات الدنيا تاركاً ، وللنفس عند غلبتها مالكاً " .. إنه من العلماء الأبرار ، معدود فى ثقات التابعين ، ومن أعيان كتبة المصاحف ، ومن حسن حظه طالعه أنه ولد فى أيام ابن عباس ، وسمع عن أنس بن مالك ، وحدّث عنه .

ومواقف الزهد وأحداث التاريخ التى عاشها تُلقى بظلالها الوارفة علينا ، لعلنا نستظل بها من سموم الحياة التى نحن فيها الآن .. واستمراراً لهذه المواقف التى لا يمكن حصرها بسهولة : فقد كان رجل من أهل البصرة له تجارة وله عقل ، فترك التجارة وأقبل على العبادة ، فكان يسمع الناس دائماً يقولون : مالك بن دينار ، مالك بن دينار ، فقال : والله لأذهبن إلى مالك

بن دينار هذا ، الذى أشغف الناس، فلأنظرن ما عمله .. قال : فأتيته فإذا هو جالس فى المسجد ، وإذا حوله قوم يقرأون القرآن ، فجلست فى ناحية حتى تفرّقوا ، وجاء آخرون فسمعوا الحديث ، فلما تفرّقوا قام فصلى ركعتين أو أربعاً ، ثم خرج فتبعته . فقال لى : هل لك حاجة ؟ قلت : نعم أريد أن أجئ معك إلى بيتك ، قال : مُرّ فذهب بى إلى حجرة مكنوسة نظيفة ، وظِلّ باردٌ طيب ، وبيت مكنوس ، فيه بوارى ودورق ومطهرة وحِلة فيها كِسْر ، قلت يا مالك : ألك امرأة ؟ قال : أعوذ بالله . قلت : ألك ولد ؟ قال : أعوذ بالله ، قلت : يا مالك يزعم الناس أنك أزهد الناس ، وأنت فريم الناعم (فريم هذا يُضرب به المثل وهو فريم ابن عمرو المُرئّ) .. فشهق شهقة !! ..

ونظرته فى الزواج مع أنها من سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم - إما عزوف نفسى مثلما عزف عن التلذذ بالأكل الطيب من لحم وفاكهة ، وإما خوف من تكسيله عن العبادة ، حينما قيل له : ألا تتزوج ؟ قال : ما لى إلا نفس واحدة ، لو استطعت طلّقتها ، فكيف أضم إليها أخرى ؟! . وفى نفس الموضع يقول أبو جعفر البصرى : جاءت امرأة إلى مالك بن دينار فقالت : يا مالك ، عندى من المال كذا وكذا ، فقد أردت أن أتزوجك ، فتصرف مالى هذا فى أى الأنواع شئت . قال : اذهبى إلى ثابت ، قالت : لا حاجة لى فى ثابت ، لا أريد غيرك .. قال : أما علمتِ أنّى طلّقت نساء الدنيا ثلاثاً ، فأنت منهن : إذهبى !! . ولقد ذكر الهيثم بن معاوية ، قال :

حدثنى شيخ لى قال : كان رجل من الأغنياء بالبصرة وكانت له إبنة نفيسة فائقة الجمال ، فقال لها أبوها : قد خطبك بنو هاشم ، والعرب والموالى فأبيت ، أراك تريدين مالك بن دينار وأصحابه ؟ . قالت : هو والله غايتى ، فقال الأب لأخ له : إئت مالك بن دينار ، فأخبره بمكان ابنتى ، وهواها له ، قال : فأتاه ، فقال له : فلان يقرئك السلام ، ويقول : إنك تعلم أنى أكثر هذه البلدة مالاً ، وأفشاها ضيعة ، ولى إبنة نفيسة ، وقد هويتك ، فشأنك وهى ، فإن رغبتها زوجناكها ، فقال مالك : عجباً لك يا فلان ، أما علمت أنى طلّقت الدنيا ثلاثاً .

ولأن ا لرجل قد طلّق الدنيا ثلاثاً ، فلم يك حتى فى حاجة لمن يشير عليه بما هو فى غنى عنه ، أو ما يعلم أن الله قد قدّره .. فلقد اشتكى يوماً من بطنه فقيل له : لو عمل لك مليّه ، فإنها تحبس البطن . فقال : دعونى من طبّكم .. اللهم إنك تعلم أنى لا أريد البقاء فى الدنيا لبطنى ولا لفرجى ، فلا تبقنى فى الدنيا .

وكان الرجل مؤثراً فى وعظه ، فقد دخل بيته لص ليسرق فلم يجد شيئاً ، فقال له مالك : هل لك فى شئ أحسن من هذا ؟ قال : نعم .. قال : توضأ وصلِّ معى .. فقاما يصليان حتى طلع الفجر ثم ذهبا سوياً للمسجد ، فقيل له : من هذا الذى كان معك .. قال : رجل جاء ليسرقنا فسرقناه !! .. هكذا كان الرجل الذى وعى معنى الآية ﴿ **فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ** ﴾

!!.. يعلم أن كل خطوة يخطوها وكل نَفس يتنفَّسه بحساب ، وكل عمل يقرّبه إلى الله يبعد به عن الخوف من معنى الآية .. ولعل هذا ما جعل تلاميذه يقتدون به ويسلكون نفس الطريق ويحاولون قدر المستطاع الاقتراب منه .. يقول المغيرة بن حبيب : يموت مالك بن دينار وأنا معه فى الدار لا أدرى ما عمله ، قال : فصليت معه العشاء الآخرة ؛ ثم جئت فلبست قطيفة فى أطول ما يكون الليل ، قال : وجاء مالك ، فقرّب رغيفه . فأكل ثم قام إلى آخر الصلاة فاستفتح ثم أخذ بلحيته ، فجعل يقول : إذا جمعت الأولين والآخرين ، فحرِّم شيبة مالك بن دينار على النار ، فوالله مازال يكررها حتى غلبتنى عينى ، ثم انتبهت فإذا هو على تلك الحال ، يُقدِّم رجلاً ويؤخِّر أخرى ، ويقول : يا رب إذا جمعت الأولين والآخرين فحرِّم شيبة مالك بن دينار على النار ، فمازال كذلك حتى طلع الفجر ، فقلت فى نفسى : والله لئن خرج مالك بن دينار فرآنى لا يبقى لى عنده باقية أبداً ، قال : فجئت إلى المنزل وتركته .

ومع زهده وكثرة عبادته وبكائه ، فإن للعين موطناً تدمع فيه ، ولكلمة الوعظ مُدْخلاً يقرّبُها إلى القلب فإن جاء دخلت فيه ، وإلاّ نفرت منه : فقد روى عن مالك بن دينار قوله : قرأت التوراة فوجدت فيها : أن الذى يعمل بيده طوبى لحياه ومماته ... وكان يوماً فى مجلس ، وقد قص فيه قاص ، فبكى القوم ، ثم ما كان بأوشك من أن أتواْ برؤوس ، فجعلوا يأكلون منها ، فقيل لمالك : كُلْ ، فقال : إنما يأكل الرؤوس من بكى ، وأنا لم أبك .. فلم

يأكل !! .. هكذا كان الرجل يـأخذه ورعـه وزهـده بعيـداً عـن حيـاة اللهـو والمجون إلى عالم أسمى وأرفع ..

ولأنه لا يريد أن يتركنا .. ولأننا نحن لا نريد أن نتركه ، فقد أراد أن ينهى لقاءه معنا بتذكيرنا دائماً بأننا نحمل خطايانا علـى أكتافنـا ونطـوف بهـا غير عابئين أو عابثين ، وربما يفتخر البعض بذلك !! .. ففى إحـدى مواعظـه الجليلة يقول : نزل عابد على عابد ، وللمُنزل عليه (الضيف) ابنه ، فقال لها : أكرمى أخى ، هذا مؤمن عليه وتعاهديه ، فلم يزل به الشـيطان حتـى وقـع عليها ، فولدت غلاماً ، قال : فهابت أن تقذفـه ؛ فقـال لأبيهـا هـب لى هـذا الغلام فأتبناه .. قال : هو لك . قال : فأخذه فوضعه على عاتقـه ، ثـم جعـل يطوف به فى ملأ عباد بنى إسرائيل ، فيقول : يـا إخوتـاه أحذّركـم مثـل مـا لقيت ، خطيئتى أحملها على كتفى.

هكذا أنهى الرجل الحديث معنا ليعيدنا إلى السؤال الذى أختاره اللـه ليكون عنوانـاً للفصـل الأول "مَـن سـرق المصحـف ؟!" ؛ لم يشـأ الرجـل أن يصف نفسه بالكمال أو ينأى بها عن الآخرين ، وحينما سُرق المصحف منـه كان متأدباً فى موعظته إلى أبعد الحـدود ، فهـو الزاهـد الحكيـم الـورع .. لم يشـأ حينمـا وجـه اتهامـه للنـاس أن يقـول لهـم كلكـم تبكـون فمَـن سـرق المصحف ؟.. وإنما قال : "كلنا نبكى فمـن سـرق المصحـف ؟.. لقـد أشـرك الرجل نفسه مع المتهمين وهـو المسـروق وليـس السـارق !!.. إنـه يعلـم علـم

اليقين أنه مُقصِّر هو الآخر ؛ ولذلك قال :كلنا نبكي فمن سرق المصحف!!.. وعلى الرغم من أن الرجل لا يعنى سرقة المصحف بشكله المادى وهيئته الملموسة! فقد أراد أن يُعطى للموعظة شكلاً وبُعداً أخر .. فهو لا يسأل عن المصحف فى هيئته المادية ككتاب ، وإنما أراد بسؤاله القول : من فرّط فى المصحف فسرقه !! لأن المقصود بالسرقة هنا سرقة ما يحتويه المصحف : معنى ، وفحوى ، وليس المقصود كتاب مسروق ووريقات معدودة .

ولزهده وتقاه أراد أن يُقْحم نفسه فى أمر ليس هو فيه .. أقحمها من باب الإحساس بالتقصير والإهمال فى أمور الدنيا التى لا يريدها .. فربما شعر الرجل أن الفرصة قد واتته ليعظ نفسه ، ولم يجد مشهداً ولا جمعاً مُقصِّراً كالذى ؛ بين يديه الآن فحاك فى صدره ما كان ينتظره ؛ وانطلق لسانه يعْبُر بقلبه جسوراً وجدراناً أراد القفز عليها ، أراد الرجل تذكير الناس أنهم فرّطوا فى كتاب الله فسرقوه !! وهذا هو المعنى المقصود ... مع العلم أن الله تعالى وضعه بين أيديهم بعد أن قال لهم : ﴿ **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ .. أراد الرجل أن يبكى ووجدها فرصة سانحة ، ولم يك بالطبع يلتفت فى باله إلى مصحفه المسروق ، فالأمر قد انتهى والمصاحف كثيرة ، ولكن من يقرأ ، ومن يتعظ ، ومن هو صاحب القلب الواعى ومن صاحب الأذن التى لا تخطئ ؟!! ..﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ **ق/٣٧** .

من سرق المصحف !!.. لازال السؤال موضح تحقيق ، وجدال وحقيقة معلومة ومجهولة !!.. معلومة علم اليقين ، ومجهولة لأن دواعي اليقين التى نحتكم إليها هى نفسها أسباب الإنكار التى نُبديها !!.. ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ "محمد /٢٤" . لو كانوا يتدبرون القرآن الذى يُتلى صباح مساء لما أنكروا الحقيقة ، ولما سرقوا المصحف .. إن المصحف الذى يقرأ كل يوم مُفصّلاً يتم سرقته يومياً وبنفس عدد الآيات المقروءة .. إن كثرة عدد مرات سرقة المصحف يزداد بازدياد قراءته دون تنفيذ أى تصحيح للحال التى نحن عليها .. إن كل من يقرأ ولا يعى ولا يطبِّق ما يقرأ يسرق المصحف !! وهو فى ذلك ربما كان أكثر ذنباً من ذلك الذى لا يقرأ !! .. لا زالت الإجابة حائرة .. "مَن سرق المصحف" !! أو بمعنى أصح "من يسرق المصحف يومياً" ... فالرجل رغم زهده وتقاه وورعه الذى لا شك فيه يرى نفسه سارقاً للمصحف أيضاً مثل الذين يتهمهم ؛ ولذلك قال "كلنا" و لم يقل "كلكم" .. فإذا كان هذا الرجل سارقاً !!؟ فما موقفنا نحن .. وأين نحن ذاهبون ؟!! .. أو كما جاء فى القرآن ﴿ **فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ** ﴾ !!.. وعلى الرغم من أن التفسير الظاهرى لمعنى الآية (وهو صحيح) أن الجميع موقوفون لميعاد يوم الحساب ، ولن يذهب عملاً صالحاً كان أو طالحاً هباءً ، فلقد جاءت الآية لتؤكد معنى آخر ضمن ألآف المعانى التى لا يمكن حصرها !؟..

وإذا كان الأتقياء الأنقياء وأولوا الحكمة ينتحبون ويبكون ويرون فى أنفسهم التقصير ويخافون ويخشون كل هذه الخشية .. فأين موقعنا من هذه

المعركة .. وما هو موقفنا من هـذه الوهلـة .. ومـاذا سيؤول إليـه حالنـا يـوم يكون الحساب !!!.. ومع ذلك لم يفقدنا الرجل الأمـل فـى أننـا نمسـك بـين أيدينا بداية خيط الأمل .. الأمل الجميل .. حينما قال : إن الصدق يبدو فـى القلب ضعيفاً ، كما يبدو نبات النخلة : يبدو ضعيفاً عفناً واحداً ، فإذا نتفهـا صبى ، ذهب أصلها وإن أكلتها عنز ذهب أصلها ، فتُسقى فتنتشر ، وتُسـقى فتنتشر ، حتى يكون لها أصل أصيل يوطأ !! .. سبحان اللـه .. ﴿ **فَمَا لَهُـمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ۞ بَلْ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا يُكَذِّبُون ۞ واللـه أَعْلَمُ بِمَا يُوعُـونَ ۞ فَبَشِّـرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيـمٍ إِلاَّ الَّذِيـنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ الأنشقاق / ٢٠-٢٥ .



الفصل الثانى

غلام الرهان



غلام الرهان .. !!

كان يرى ابتغاء المنازل عند الناس هو السقوط من عين الله . قال ذات مرة : لولا ما نهينا عنه من تمنى الموت لتمنيته ، لى فيه خلتان حسنتان : الراحة من عشرة الفجار ، ورجاء مجاورة الأبرار .. ثم بكى وقال : أستغفر الله ، وما يؤمننى أن يُقْرن بينى وبين الشيطان فى سلسلة واحدة من حديد ثم يقذف بى فى النار ؟. لقد كانت آيات الزهد تُنير فى قلبه مثل المصابيح ، وما أحسب إلا أنها بهذا النور قد أعانته على جهاد نفسه . يقول أحد أصحابه بعدما أعياه الفكر والتأمل فى أمر الرجل : لقد أزاح القناع على قلبى فإذا الذى نحن فيه هين، وإذا الذى كنا نستطيل من الأجل حاضر أمام أبصارنا !! . لقد كان يفرح لما يرى من هوانه على الذين لا يعرفونه ، كما يفرح أحدنا بإقبال الناس عليه بالكرامة ... فلقد ركب السفينة ذات مرة فاضطربت وأخذت تميل وتستوى ، فأراد الملاح أن يُعدِّل جلسة الجالسين فلم يجد أهون فى عينه من الغلام ، فدفعه فى جنبه وقال : إستو يا هذا بإزاء من بجوارك !! قال ابن زهير : فوالله لقد رأيت السرور يشرق عل وجه الغلام ، وسمعت غمغمة يسيرة تتحرك بها شفتاه ، فأدنيت أذنى منه فإذا به يقول : الحمد لله على أن لم ير فيهم أحقر فى عينيه منى !!.. سبحان الله.. فأين تذهبون !!؟.. أين نحن من هذا الغلام . قالت أم عطاء ، وكانت أقرب الناس إليه وأعلمهم بحاله : هذا شأن الأتقياء الأخفياء : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾

الفرقان/٦٣ وتضيف: لم أكن أقل جهلاً بالغلام من ذلك الملاح الذى ضربه فى جنبه ، ولقد كنت إذا فطرت من صيامى قلت : اللهم اسقنى من حوض النبى صلى الله عليه وسلم ، فرأيت فيما يرى النائم ذات ليلة قائلاً يقول لى: يا أم عطاء ، إذا سألت الله أن يُسقِيك من حوض النبى صلى الله عليه وسلم فسليه أن يسقيك من حوض التقى الخفى ، فإن له عند الله لزلفى .. قلت : ويحك ومن يكون ذلك ؟ قال جارك الأدنى !! قلت : ويحك لا أفهم ما تقول !! قال عتبة بن أبان بن ثعلب !!.. إنه الغلام !!.. الآن فقط عزيزى القارئ تستطيع وبعد أن عرفت من هو الغلام ، عليك أن تعرف : أن شأنه كشأن غلمان السباق والرهان فى تلك الأيام الخالية ، ومثالاً حياً لمن يريد أن يقتدى وإن كنا (والله أعلم) لن نصل مهما فعلنا إلى تلك المرتبة !!

تواصل أم عطاء الحديث فتقول : غدوت فى صباح اليوم الذى رأيت فيه الرؤيا إلى بيت عتبة ، وانتحلت علة أدخل بها إلى بيته ، فلما رآنى قال : يا أم عطاء .. لا أُصدِّق ، ما يُقال لك أضغاث الأحلام فإنه قد يكون الغلام !!.. فأخذت القوم هزة ـ (الذين كانوا فى مجلسها يستمعون إليها) ـ مالوا بها كما تميل أطراف الأشجار فى اليوم العاصف . إستمرت فى الحديث تقول : وطدت علاقتى به ، فكان يأخذ دقيقه فيبله بالماء ويعجنه ثم يضعه فى الشمس حتى يجف ، فإذا كان الليل جاء فأخذه وأكل منه لُقماً ، ثم يأخذ الكوز وبه بعض الماء ، فقلت : يا عتبة لو أعطيتنى دقيقك فخبزته لك ، وبردت لك الماء ، أو أمرت مولاتك فصنعت لك . قال : يا أم عطاء

إن الأمر أعجل من ذلك .. كِسرة من خبز وملح تسُد عنى كلب الجوع حتى يُهيًّا فى الدار الآخرة الشواء والطعام الطيب . ويقول سَلَم العباداتى : رحم الله الغلام ، لقد كان شوقه إلى الآخرة يكاد يذيبه وَلَهاً بها . ولقد قدم علينا مرة ومعه عبد الواحد بن زيد وصاحبان آخران ، فنزلوا على الساحل فهيأت لهم طعاماً ذات ليلة ودعوتهم إليه فجاءوا ، فلما وُضِع بين أيديهم ، إذا غلام على الساحل يرفع صوته بقول القائل :

ويليهك عن دار الخلود مطاعمُ
ولذة نفس .. غيُّها غير نافع

فانتفض عُتبة انتفاضة سقط على أثرها مغشياً عليه .. وبكى القوم لغشيته ، واشتغلنا به ، ورفعنا الطعام ، وما ذاقوا والله منه لقمة !!

وتحاول أم عطاء أخذ طرف الحديث فتقول : لله ما ترك عتبة من شهوات نفسه !! لقد نازعته نفسه مرة إلى اللحم فقال لها : اندفعى عنى إلى قابل ، فمازال يدافعها سنة بعد سنة حتى أخذ دانقاً ونصفاً ، وأتى صديق له خبّازاً فقال : يا أخى إن نفسى تنازعنى لحماً منذ كذا ، وقد استحييت منها كم أعدها وأخلفها ! فخذ لى رغيفين وقطعة من اللحم بهذا الدانق والنصف، فلما أتاه به إذا هو بصبى يمشى فى الطريق ، فأسرع إليه وقال له: ألست يا غلام فلان ابن فلان ؟ وقد مات أبوك ؟ .. قال : بلى .. قالت أم عطاء : فجعل عتبة يبكى ، ويمسح رأس اليتيم ، وناوله ما كان ثم قرأ

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ .. فأين تذهبون !! يا من تصل بكم التخمة حد إرجاع ما فى بطونكم ، وألآف يتضورون جوعاً .. فأين تذهبون !! يا من تعطون بيد الشح - إذا أعطيتم - وتفضحون أنفسكم ببخلكم قبل أن تفضحوا من يأخذ منكم .. فأين تذهبون !! .. فأين تذهبون ..!!.. تواصل جارته أم عطاء حديث الروح فتقول : لقد جاء فى غداة باردة وما فى البصرة كلها إلا من أوى إلى فراش يدفئه أو موقد يصطلى بجذوته ، فقال : الوداع يا أم عطاء لقد أزمعت الرحيل إلى الشام غازياً فى سبيل الله !! قالت : يعز عليّ فراقك يا عتبة ، فلا أوحش الله منك فقال : بل قد يطول الفراق ، وما أحسبنا نلتقى ! ، وهنا اختنقت أم عطاء بالبكاء ، فسكتت لحظة كفكفت فيها من الدمع ثم عادت تقول : لله تلك الأرواح الطاهرة ، والنفوس المشرقة ، لقد صفا طبع عتبة حتى كان أضوء من وجه المرآة ، فكان لا يخطر بنفسه الخاطر من أمر الله فى لحظة من نهار ، إلا تراءى سره فيه ، وما كانت البشرى تنزل إليه فى رؤيا من الرؤى إلا جاءت كفلق الصبح .. ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يونس/٦٤.. والبشرى فى الحياة الدنيا هى الرؤيا الصالحة كما قال بعض المفسرين .. وتستطرد فتقول : لقد قال لى : سيطول الفراق يا أم عطاء ، وما أحسبنا نلتقى فى هذه الدار !! هكذا رأيت تلك الليلة ، وما أحسب إلا أن الله قد أجاب ما كنت أدعوه به : اللهم أحشر عُتبة فى حواصل الطير وبطون السباع ! ومضى يقول :

أرأيت ذلك المكان فى دارى ، الذى أتعبد فيه ؟! هذا مفتاحه فاجعليه معك لا يفتحه أحدٌ ، فإذا بلغكم منعاى فافتحوه، ففيه وصيتى .. ولما بلغت أم عطاء هذا الحد من الكلام أخذها ما يشبه الرعدة ، وبكت وهى تواصل حديثها قائلة : لله تلك النسمة الزكية ، ما أشد ما كانت تذكّرنا بالدار الآخرة حتى لكنت أكاد أسمع صيحات الفزع تطلقها نفسى بين جنبى من هول ما كنت ترى فى كلامه من صور القيامة .

هذا هو ما قصدته من اختيار اسم الفصل " غلام الرهان " لأننا حينما نتحدث عن إحدى خصاله نحسب وكأننا قد بلغنا نهاية المضمار ، ولكن هيهات لسابق المضمار أن يقف بحالة مع نفسه عندما يقف مع الناس !! .. وفى هذه الأثناء يأتى الناعى بنبأ استشهاده واسترجعت أم عطاء مع جالسيها وبعض أصدقائه الذين لم يذهبوا للقتال بعض ما شاء الله لهم أن يسترجعوا ، فقاموا على الفور إلى مكان عبادته حيث طلب منهم ليروا الوصية ، وقاموا بفتحها ، فإذا المكان ليس فيه إلا قبر محفور .. وسلسلة ذرعها سبعون ذراعاً.. وشهقت أم عطاء ، وأجهشت بالبكاء ، وأجهش الجميع معها فلم يُرَ أكثر بكاءاً لموعظة من ذلك اليوم .. وكانت الشمس قد انحدرت للمغيب، فلم يعد منها إلا بقية صفراء على رؤوس الأشجار ، فجاءت جارية تؤذنها أن الخل الذى اعتادت أن تفطر عليه من صيامها مع كسر الخبز قد نفذ ، فإن لم يكن لك حاجة إلى وضوء المغرب مضيت فاشتريت خلاً ، فقالت وهى شارقة بالدمع : بل قربى لى الوضوء ، فإنه لا مأرب لى فيما

تشغلين بـه نفسـك ، وفـى المـاء القـــراح غنيـــة للصـــائم إذا أراد الســـير إلى أحبابه!!.. فأين تذهبون ؟!.. يا من تشغلون أنفســكم بتوافـه الأمـور .. أيـن تذهبون .. يا من تتصارعون على لا شئ وتحسبونه كل شئ وهـو لا شـئ .. فأين تذهبون ؟! يا من تتصارعون على الأرض ظاهرها والرجل كان كل مناه باطنها ، ويا له من باطن يغـوص فيـه أى شـئ وكـل شـئ ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى** ﴾ طه/٥٥ .. أين تذهبـون ؟! يـا من تعتقدون أنكم غير عائدون .. وماذا تكتبون فى وصايـاكم .. هـل رأيتـم وعاينتم بالقراءة وصية الرجل .. إنها شاهد عيان لقد رأيتموها كمـا سـترون الموت .. فأين تذهبون ..!!؟ .

القصة لم تنته بعد والحديث طويل ولكنه هذه المرة على لسان أبو أنس ، فلم تعد أم عطاء قادرة على السرد بعدما انصـدع فؤادهـا لمـا هـاج بـه مـن الوجد .. فلقد لقى عتبة صديقاً له فقال : كدت لا ترانى يا أبا أنـس !! قـال أبو أنس : وما ذاك فإنى أرى وجهك وصوتك لا يثبتان على حال !.. قال : كادت الأرض تخف بى !! قال : وما جنايتك ؟ قـال : رأيـت أحـد إخوانـى فقال لى يا عتبة : أنت فى كساءين وأنا فى كساء واحد .. فوالله لـولا أنـى أعطيته لما ظننت أنى أنجو من الأرض وهـى تميـد بـى تريـد أن تـأخذنى كمـا أخذت قارون من قبل !.

عزيزى القارئ .. هذه هى الزاوية الثانية التى قصدتها حسب اجتهادى من الآية الكريمة "فأين تذهبون" .. زاوية الضمير الحى .. فالرجل لم يرتكب جريمة حينما لبس ثوبين فوق بعضيهما البعض ، وإنما هو الضمير الحى الذى يرى صاحبه فيه الضوء الذى يقوده إلى عالمه الذى يرتضيه لنفسه.. ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ .. ولعلك عزيزى القارئ تقارن بين ضمير رجل كهذا وبين أولئك الذين لا تطيب معيشتهم إلا حينما يرى حرمان الآخرين ، فإن نفوس هؤلاء الأنانيين تتغذى برؤية هذا الفارق بألذ مما تتغذى به معداتهم وأبدانهم .. حينما يحوز إلى جانبه كل شئ ، ويمنع عن أخيه كل شئ .. وليس أشهى فى غرور أحدهم إذا خرج على الناس فى زينته من أن يرى وجوه الذل تعنو لكبريائه ، ونظرات البؤس والفاقة تنقل إلى سريرته ما تشتهيه خواطر المحرومين فيفرح كل قارون صغير (وما أكثرهم) !! بما فرح به قارون الكبير يوم ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ "القصص/٧٩" وكانت النهاية معروفة فيما بعد للجميع يوم لا ينفع الندم .

لم يتوقف عطاء الضمائر فهو إناء ينضح بما فيه خيراً كان أو شراً ، والرجل يضع بين أيدينا ما هو أرفع من كل ما فات .. فقد لقيه عبد الواحد ابن زيد مرة فى رحبة القصابين فى يوم شات شديد البرد فإذا هو يتصبب عرقاً ، وقد أطرق برأسه لا يرفعه !! قال عبد الواحد فدنوت منه وقلت : عُتبة !! قال : نعم . فقلت : ما شأنك . قال : خير !! . قلت : مالك تعرق

فى يوم مثل هذا اليوم وهو شديد البرد ؟ . قال : خير !! . قلت : ناشدتك الأنس الذى بينى وبينك والإخاء ألا ما أخبرتنى . قال : ذكرت والله ذنباً أصبته فى هذا المكان فحضرنى ما ترى وأنا تحت عين الله. يا سبحان الله .. إلى كل الضمائر الميتة ، والعقول الضآلة ، والقلوب اللاهية ، أوجِّه هذا السؤال .. آسف .. أذكركم بهذه الآية .. فأين تذهبون ..!! ﴿ **أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۞ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ** ﴾ النجم/٥٩-٦١ .

وقبل أن ننهى حديثنا عن الغلام نطل برؤوسنا من زاوية ثالثة لمعنى الآية الكريمة .. فأين تذهبون .. فيحدثنا أبو عمرو البصرى قال : كان رأس مال عتبة فلساً واحداً فيشترى به الخوص فإذا عمله باعه بثلاثة فلوس ، ففلس يتخذه رأس مال من جديد ، وفلس يشترى به شيئاً يفطر عليه ، وفلس يجعله فى سبيل الله يتصدق به أو يُعين على نائبه .. فأين تذهبون يا أصحاب رؤوس الأموال الطائلة التى لا يخرج منها مليماً واحداً لزكاة ، أو صدقه ، أو فك أسر مكروب من كربه ، أو تخليص صاحب حاجة يرى الدنيا قد أظلمت فى عينيه .. فأين تذهبون.. فأين تذهبون ؟! ... لم ينته الحديث بعد وسأنهيه بهذه الرائعة من روائع الغلام لعلها تكون مسك الختام ، وتكون عبرة لمن يعتبر .. وأقولها وقوله الحق للمرة الثانية .. ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾ .. فلقد سمع سليمان بن على عن عتبة الكثير حتى ظن أنه إن لم ير الرجل فإنه لن يبلغ ما يريد رغم أنه يملك كل ما شاء الله له .. لذا طلب

الرجل من بعض أصحابه أن يذهبوا به إلى عتبة ، فهو يعلم رغم غناه وسلطانه ومكانته أن عتبة لن يأتى إليه مهما بلغ الأمر . ذهب سليمان لعتبة، وظل يبحث عنه طوال يومه حتى بلغوه فى موقع من البصرة وقد جلس وأطرق رأسه ينكت الأرض بعود فى يده وهو لا يشعر بمكانهم منه وقد وقفوا على رأسه . قالوا : السلام عليك يا عتبة . فرفع رأسه فنظر فقال : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . قالوا : كيف أنت يا عتبة . قال : بين حالين لا أُقرُّ على حال منهما : بين جحيم أفزع منه ، ونعيم لم أُقدِّم له شيئاً ؛ فإذا قدمت على الله فما عسى أن يكون قدومى ؛ ثم نكس رأسه وجعل ينكت الأرض : فقال سليمان لصاحبه : أرى عتبة قد أحرز نفسه ، ولا يبالى ما أصبحنا فيه وأمسينا .. ثم قال : يا عتبة قد أمرت لك بألفى درهم ، قال : أقبلها منك أيها الأمير على أن تقضى لى معها حاجة . قال سليمان وقد سره ما سمع من عتبة : وما حاجتك ؟ قال : حاجتى أن تعفينى منها وتجعلها إن شئت فى مصالح المسلمين !! قال سليمان : قد فعلت ثم عاد أدراجه مع أصحابه وهو يقول : أزاح عتبة القناع على قلبى فإذا الذى نحن فيه هين وإذا الذى كنا نستطيل من الأجل حاضر أمام أبصارنا !! .... ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ**﴾ .. أعتقد أننا قد أجبنا جزءاً يسيراً جداً من زوايا مختلفة من خلال الغلام الذى استجاب الله دعاءه فجعله فى حواصل الطير وبطون السباع كما طلب من ربه .. ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ** ﴾ .





الفصل الثالث

إحدى المحبتين سوف تمنعك من الأخرى !!



إحدى المحبتين سوف تمنعك من الأخرى !!

إن طريق الحق محفوف بالمخاطر ، وإن مجـالدة البـاطل تحتـاج إلى قـوة وصبر، وأنه لابد فيها من معـارك ومـن أشـلاء .... ﴿ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ** ﴾ الرعـد/١٧.. ولكـن النتيجـة المحتومـة رغـم طـول الصـبر والغيـاب هـي للحـق وان كـان الثمـن فادحـاً في معظـم الأحوال، إن لم يكن في كل الأحوال ... فمن يصبر ... ومـن يـترك السـاحة ... ومن يستجير بالنار من الرمضاء ، لعله يبلغ ما يريد ... !!؟. يقول وهب بن منبه : البلاء للمؤمن كالشكال للدابة ، ثم يضيف : من أصيب بشيء مـن البلاء فقد سلك به طريق الأنبياء فإذا سلك بك طريق البلاء فطب نفساً فقـد سلك بك طريق الأنبياء والصالحين ، وإذا سلك بك طريق الرخاء ، فقد اخذ بك طريق غير طريق الأنبياء والصالحين عليهم الصلاة والسلام .

وفى ذلك لا يجب على المرء مهمـا نازعتـه نفسـه وظنونـه وحسـب حساباته بطريقة يظن أحياناً أنها صائبة وأحيانـاً أخـرى أنهـا خاطئـة لا يجـب بحال إلا إن يلتزم بما قدّره اللـه أن يكون من قبل أن يكون ... فكيف ذلك؟! يقول وهب : لِمَ تحسب الأشياء على غير وجهها وتبعاتها ، ويضرب في ذلك مثالاً حيـاً علـى أصحـاب الرسـالات ، فيقـول : إن للنبـوة أثقـالاً ومؤنـة لا

يحملها إلا القوى ، وأن يونس بن متى كان عبداً صالحاً ، فلما حُمِلت عليه النبوة تفسّخ تحتها تفسخ الربع عن الحمل (والربع هو الجمل الصغير الذي لا يستطيع الحمل) ؛ فرفضها من يده فخرج هارباً ، فقال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ ﴾ الأحقاف/٣٥ .. وقال أيضاً ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ القلم/٤٨. فالخطوب ومقارعة ومنازلة الصعاب ومجالدة الباطل في كل مكان وزمان هي التي تظهر معادن الرجال ، والنصر والهزيمة بين حين وأخرى هي من سنن الحياة ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ آل عمران/١٤٠ . غير أن النتيجة محسومة في النهاية لصالح الحق بلا شك ، وإن تملّك اليأس من النفوس ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ .

ولكي تستريح النفس وتقر العين فانه لابد من تجهيزها لكل الاحتمالات على أن يكون ذلك عن رضا وقناعة ، وليس من قبيل التواكل والاستسلام ، إلا أن يكون الاستسلام لوجه الله تعالى .. وفي ذلك يحدثنا وهب فيثلج الصدور ويغمر النفس ببرد الرضاء وسكون الطمأنينة فيقول : يا ابن آدم أقصر عن تناول ما لا تنال ، وعن طلب ما لا تُدْرك ، وعن ابتغاء ما لا يوجد ، واقطع الرجاء منك عما فقدتَ من الأشياء ، وأعلم أن رُب مطلوب هو شر لطالبه ، يا ابن آدم ، إنما الصبر عند المصيبة ، وأعظم من المصيبة سوء الخلف منها ، يا ابن آدم فأي الدهر ترتجي ؟! أيوماً يجئ في

عزة ، أو يوما نستأخر فيه عن أوان مجيئه ؟ فانظر إلى الدهر تجده ثلاثة أيـام : يوم مضى لا ترتجيـه، ويـوم لابـد منـه ، ويـوم يجـئ لا تأمنـه . فـأمس شـاهد مقبول، وأمين مؤد حكيم وارد، قد فجعك بنفسه ، وخلف في يدك حكمتـه، واليوم صديق مودع كان طويل الغيبة وهو سـريع الظعـن ، أتـاك ولم تأتـه ، وقد مضى قبله شاهد عدل فان كان فيه لك فاشـفعه بمثلـه ، يـا ابـن آدم إنمـا أهل هذه الدار سـفر لا يحلّـون عقـدة الرحـال إلا في غيرهـا ، وإنمـا يتبلّغـون بالعوارى ، فما أحسن الشكر للمنعم ، والتسليم للمعير ، فـاعلم يـا بـن آدم أنه لا رزية أعظم من رزية في عقل ممن ضيّع اليقين .. يا ابن آدم قد مضـت أصول نحن فروعها فما بقاء الفرع بعد أصلـه ... ويواصـل الرجـل حديثـه فيقول : يا أيها الناس إنما البقاء بعد الفناء ، وقد خلقنا ولم نكن ، سـنُبلى ثـم نعود ، ألا وإنما العوارى اليوم والهبات غداً ، ألا وانـه قـد تقـارب منـا سـلب فاحش أو عطاء جزيل ، فاستصلحوا ما تقدمون بما تظعنون عنه .

والحديث السابق ربما جاء في إطار أشمل ومن خلال الحديث القدسـى الشريف ، والذي أوحى الله تعالى فيه إلى داود عليـه السـلام : يـا داود هـل تدرى من أغفر له ذنوبه من عبادي ؟ قال : من هو يا رب ؟ قال : الذي إذا ذكر ذنوبه ارتعدت فرائصه ، فذلك العبد الذي آمـر ملائكـتي أن يمحـوا عنـه ذنوبه .

نعود لعنوان هذا الفصل فقد كتب وهب بن منبه إلى مكحول يقول : إنك قد أصبت بما ظهر من علم الإسلام عند الناس محبة وشرفاً ، فـاطلب بمـا

بطن من علم الإسلام عند الله تعالى محبة وزُلفى ، واعلم أن إحدى المحبتين سوف تمنعك من الأخرى . فالتقرب بعلم الله إلى الله وهو ما بطن دون مراءاة أو تقرب أو رياء إلى الناس هو الشرف بعينه فوزاً في الدنيا ونعيما في الآخرة ... فإن للعلم طغياناً كطغيان المال ، وهذا ما قصده منبه حين قال : إنك قد أصبت بما ظهر من علم الإسلام عند الناس محبة وشرفاً .. سواء كان هؤلاء الناس من العامة أو من رجال السلطان والحكم .. مظاهر العلم وان أعطاك شرفاً وسؤدداً فانه سوف يمنعك مما هو اعز واقرب إلى الله والتقرب إليه زلفى ابتغاء وجهه الكريم . وفى ذلك يقول "الخراسانى " سمعت وهباً يقول : كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، فكانوا لا يلتفتون إلى دنيا غيرهم وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم ، فأصبح أهل العلم اليوم فينا يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم ، واصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعهم عندهم ، فإياك وأبواب السلاطين فإن عند أبوابهم فتناً كمبارك الإبل ، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا وأصابوا من دينك مثله ، ثم قال ، يا خراسانى : إن كان يغنيك ما يكفيك فكل عيشك يكفيك ، وان كان لا يغنيك ما يكفيك فليس شئ يكفيك إنما بطنك بحر من البحور ، وواد من الأودية لا يسعُه إلا التراب .

هؤلاء رجال طلّقوا الدنيا والمذلة والهوان إلى إن تقوم الساعة ، لجأوا إلى الله تقرباً وابتغاءاً لوجه الكريم ، لا يتمرغون في الوحل ولا يلجأون

بطرق ملتوية للحصول على رضاء الناس أو أصحاب السلطان أو الجاه أو ذوى النفوذ .. لا يتاجرون بعلم ظاهر ويتركون ما هو أعظم وهو ما بطن من علم الإسلام .. فكما رأينا كان جزاؤهم أن أصبح أهل الدنيا زاهدين في علم أولئك العلماء الذين يتقربون إليهم من دون الله .

وفى هذا الموضع نفسه يقول عبد الصمد بن معقل : سمعت وهب بن منبه يقول : لا يكون البطّال من الحكماء ، ولا يرث الزناة من ملكوت السماء . واستمراراً في الحديث عن أولئك العلماء الذين طلّقوا الذل والمهانة واعتزوا بعزة الله واستغنوا بغناه لا يقبلون السحت والبهتان ، ولا يركنون للظلم والطغيان ، نراهم يجدون أن في الإستكانة والإستسلام لغير وجه الله ما يجعل الأسباب تتوقف .. ومع أن الله قد جعل لكل شئ سبباً ، فان هذه الأسباب تسير وفق قواعد إلهية ومنهج مرسوم .. فالاستسلام لغير الله يوْقف الأسباب ، والتمرد على الظلم بأي شكل من الأشكال يُسيِّر الأسباب ويجعلها مركب النجاة إلى حيث أراد الله . الأسباب التي اختارها الله لا تأتي جُزافاً ولا تأتي لأي شخص أو في أي زمان ومكان دون حساب وتوقيت معلوم .. إنما ترتبط الأسباب بقدر ما بداخلك من عز هو من عزة الله ، وبخلاص من ذل ومهانة ما أنزل الله بهما من سلطان .. التمرد على الظلم هو بداية الطريق أي طريق للنجاة .. الاستكانة للظلم هو الاستسلام للذل في غير طاعة الله .. ولذلك حينما تحدث رب العزة عن فرعون وكيف

أن قومه إستمرءوا المهانة وجُبلوا عليها واستعذبوها .. قال : ﴿ **فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾ الزخرف/٥٤ .

والفسق جمع كل الرذائل في سلة واحدة ، قاعدتها الخروج عن طاعة الله، وقمتها التمرغ في وحل الظالمين واستعذاب عذابهم .. وهذا ما لا يمكن إن يحدث مع الطائعين الواثقين في قدرة الله المؤمنين بها .. أحبهم الله فأحبوه .. ومكّنهم ما لم يمكّن لغيرهم ، فتمردوا على الظلم فأعطاهم الله قوة اليقين ، مع إيمانهم بأن مجالدة الباطل تحتاج إلى رجال من نوع خاص كما ذكرنا.. فإذا كان لديك القدرة على مجالدة الظلم والظالمين فإن الله قد أتاك من كل شئ سببا .. هنا تسير الأسباب بقدر ما بداخلك من قدرة على التمرد على الظلم ، وتتوقف الأسباب بقدر ما بداخلك من خور وقنوط وخنوع ... فإذا ما أُعْطيت القدرة على مواجهة الظلم أولاً فلا تتوقف ، بل واصل ودافع وجاهد لدفع الظلم والظالمين .. قال تعالى في حديثه عن ذي القرنين وهو الذي أوتى من كل شئ سبباً ﴿ **أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا** ﴾ الكهف/٨٧ ... كان ذلك رد ذي القرنين؛ حينما وضع الله الخيار بين يديه وقال له ﴿ **إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا** ﴾ الكهف/٨٦ .. ولأن ذي القرنين كان من أولئك الذين أعطاهم الله واختصهم ، فلم يكن في حاجه للاختيار ، فالطريق واضح وهو يفعل بإذن الله ما يريد أو ما خُلِقَ من اجله .. وكان الاختبار أو الخيار الثاني أمامه حينما عُرِضَ عليه خراجاً من القوم ليجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج

سداً ... فكان جوابه : أن قال : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ الكهف/٩٥.. الأسباب إذن يتوقف تسييرها على قوة اليقين والإيمان بالله والاستسلام لوجهه دون مقابل .. وتتوقف تماماً حينما يكون الاستسلام لغير وجه الله ، ففي ذلك رضاءاً بالظلم واستسلاماً للظالمين وشرك بالله الذي جعل لكل شئ سبباً ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ الكهف/٨٩ .. فأقصر عن تناول مالا تنال ، وعن طلب ما لا تدرك، وعن ابتغاء مالا يوجد ، واقطع الرجاء منك عما فقدت من الأشياء ، واعلم انه رب مطلوب هو شر لطالبه ، فقد جعل الله لكل شئ سبباً ، وقد جعل الله لكل شئ قدرا .. فاسترح يا عزيزي في دنياك وكفى مقارعة لأفكار تنال من قدرك ومن صحتك ومن عافيتك ما يأخذ منها الكثير ؛ ولا يعود إليك ما فقدت مهما كان الأمر .. فلِما الصراع في شئ مقدور ، وعلى أي شئ كل هذا العراك المسعور .. فقد جعل الله لكل شئ قدراً .. ولأن القدر مرسوم ومحتوم ، ولا يمكن تنفيذه إلا بأسباب فإن الأسباب هي الطريق .. وقد جعل الله لكل شئ سبباً .. فالسبب والمقدور هما البداية والنهاية وكليهما في يد الخالق شريطه الاستسلام لله لعلنا نفوز ونرضى ..

وباطن العلم الذي يبتغيه من يريد وجه الله تعالى متجنبا ظاهر العلم الذي يُقرِّب من الناس يجعلنا نتحدث عن حقيقة العبودية التي يوجزها الأمام جعفر الصادق حينما سألوه .. ما حقيقة العبودية ؟ قال ثلاثة أشياء : ألاّ يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكاً ، لان العبد لا يكون له ملك ، فهم

يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به ، ولا يدبِّر العبد لنفسه تدبيراً ويجعل اشتغاله فيما أمره الله تعالى به ونهاه عنه ، فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوله الله مُلْكاً هان عليه الأنفاق فيما أمره الله أن ينفق فيه ، وإذا فوض العبد تدبير نفسه إلى مُدبِّره هانت عليه مصائب الدنيا ، وإذا اشتغل العبد بما أمره الله ونهاه لا يتفرع منهما إلى المرآءاة والمباهاة مع الناس، فإذا اكرم الله العبد بهذه الثلاثة هانت عليه الدنيا وإبليس والخلق .. الأولى : لا يطلب الدنيا تكاثراً أو تفاخراً . والثانية : ولا يطلب ما عند الناس عِزّاً وعلواً . والثالثة : ولا يدع أيامه باطلاً . فهذه أولى درجات التقى ، قال الله تعالى ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ القصص/٨٣ . قال المريد يا أمام أوصيني قال: أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدى فى الطريق إلى الله تعالى : اسأله أن يوفقك لاستعمالها : ثلاثة منها فى رياضة النفس ، وثلاثة منها فى الحُلم ، وثلاثة منها فى العلم فاحفظها وإياك من التهاون . أما اللواتى فى الرياضة فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنه يورِّث الحماقة والبله ، ولا تأكل إلا عند الجوع ، وإذا أكلت فكل حلالاً وسمِّ الله ، واذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما ملأ آدمى دعاء شراً من بطنه فإن كان ولابد فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه) وأما اللواتى فى الحلم فمن قال لك : إن قلت واحدة سمعت عشرة فقل له : إن قلت عشرة لم تسمع واحدة . ومن شتمك فقل له : إن كنت صادقاً فيما تقول فأسال الله تعالى ان يغفر لى ،

وإن كنت كاذباً فيما تقول فأسال اللـه أن يغفر لـك ، ومـن توعـدك بالخنـا فعده بالنصيحة والدعاء . وأما اللواتي في العلم : فأسأل العلماء ما جهلـت ، وإياك أن تسألهم تعنتاًوتجربة ، وإياك أن تعمل برأيك شيئاً ، وخـذ بالإحتيـاط في جميع ما تجد إليه سبيلاً ، واهرب من الفتيا هروبـك مـن الأسـد ولا تجعـل رقبتك للناس جسراً ... فأين تذهبون !! ... وأين نحـن ذاهبـون !! ... فـأين تذهبون ؟! .. هذا هو باطن العلم .. فلا تطلبوا ما ظهر من علم الإسلام عند الناس محبة وشرفاً ؛ واطلبوا ما بطن من علم الإسلام عند الله محبـة وزلفـى ، واعلم أن إحدى المحبتين سوف تمنعك من الأخرى ..!!

والعلم الباطن الذى يقربنا إلى اللـه هو كفاية ووقايـة لكـل شـئ ومـن أى شئ .. يقول الأمام على رضى اللـه عنه : " كفى بالعلم شـرفاً أن يدَّعيـه من لا يحسنه ويفرح إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل ذماً أن يتـبرأ منـه مـن هـو فيه " .. وقد يكون الجهل الذى قصده الأمـام علـى هـو العلـم الظـاهر الـذى يقـرِّب صاحبـه عنـد النـاس محبة وشـرفاً ، ووجـه الجهالـة هنـا أن الإنسـان سيستغنى عن باطن العلـم – هو الحقيقة – بظاهره فينصـرف عـن اللـه تقربـاً للناس !!.. ولعل ما بطن من علم الإسلام يجعـل النفـس اكثر شـفافية وابعـد رؤية لكونها أقرب إلى اللـه دائماً من أى شئ آخر ؛ فترى المـرء دائمـا مهمـا كان قريباً من اللـه يشعر بحاجة أكبر وأكبر للاقـتراب ، ولعـل هـذا مـا جعـل عمر بن شبَّه يقول وهو يصور لقاء إخـوان فـى اللـه يقـول الأول للثـانى : واللـه يا أخى إنى لأحبك فى اللـه ، فقال له الآخر: لو علمت منى ما أعلمـه

من نفسى لأبغضتنى فى الله . فقال : والله يا أخى لو علمت منك ما تعلمه من نفسك لمنعنى من بُغْضِك ما أعمله من نفسى . فأين تذهبون . فأين تذهبون !!



الفصل الرابع

عن من .. ؟!



عن مَن ..؟!

وعلوم الباطن لا تحتاج إلى جدال ، ولا يمكن أن يقوم عليها إلا من هو أهلٌ لها ، فلقد كان الحسن البصري إذا سأله إنسان في غيرها " علوم الباطن" تبرّم به وقال : إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر ، وكان يتساءل فيقول: هل رأيت فقيهاً بعينك ، إنما الفقيه : الزاهد في الدنيا ، البصير بدنيه ، المداوم على عبادة ربه . وعلوم الباطن تحتاج إلى التفهم ، وقبل ذلك نقاء السريرة وحُسن الاستماع وإيمان عميق يجعل من صاحبة شاهداً على نفسه ، ولا داعى للغط والسفسطة وتوافه الأمور التي تخرج عن مضمون العلم ... فكثيراً ما كان يأتي إلى الحسن البصري من يسأله ... عن مَنْ هذا الحديث ؟ ... يقصد السائل من أين جاء بالحديث ، ومن أولئك الذين نقلوه نفر عن نفر .. فكان يجيب : وما تصنع بعن من ؟! أمَّا أنت فقد نالتك موعظة ، وقامت عليك حجة .

كلام بليغ فالموعظة إما أن تنفذ في صدرك وتجتاح خوالجك وتهز كيانك هزاً ، وتجرى في العروق مجرى الدم ... وإمَّا فلا فائدة مما سمعت !! ؛ وقيام الحجة عليك أمراً أصبح لا مفر منه ، فلقد علمت وطالما علمت فقد لزم التنفيذ .. ﴿ بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ القيامة ١٤/١٥ .... ولا يفيد التبرير والهروب حينئذ .. ويا ليتك ما علمت!! فالحمل أصبح ثقيلاً ولا مفر منه إلا تنفيذ ما كلفك الله ورسوله ،

والموعظة تستمد تأثيرها من سهوله بيانها وتوضيح معناهـا وقـدرة المتحـدث الواعظ في توصيلها . فلقد قال الحسن البصري يوما لفرقد بـن يعقـوب وهـو يعظه : بلغنى أنك لا تأكل الفالوذج "نوع من الحلوى" فقال : يا أبا سـعيد " يقصد البصري " : أخاف ألاَّ أؤدى شـكره ، قـال البصـرى : يـا لكـع !، وهل تقدر أن تؤدى شكر الماء البارد الذى تشربه ؟ وجاء إليـه رجـل ليقـول له: أن فلاناً إغتابك ، فبعث إليه بطبق حلوى ، وقال : بلغنـى أنـك أهديـت إلىّ حسناتك فكافأتك . هكذا تكون الموعظة والحكمة الحسـنة **﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل/١٢٥** .

ذلك أن البصرى فى طريقة تأديبه لمن حوله يرسم منهاجاً فريـداً فـى أسلوب الدعوة إلى الله ، فقد سمع رجلاً يشكو علة إلى آخر فقال : أمَا أنـك تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك .. واستمراراً فى الأخذ بأسلوب الوعظ والحكمة للوصول إلى القلوب كان الحسـن البصـرى – رحمـة الله – السـهل الممتنع يأخذ بجوامع القلوب ، وينفـذ بيسـر وسـهوله إلى عقـل المسـتمع دون تعقيد ، وكانت أجوبته مسكّنة مقنعة ، تدل على سـعة علمـه ، وسـعة أفقـه ورحابه صدره .. وما أحوجنا إليها فى زمان ضاقت فيه الأرض بما رحبت ، وأُثقلت الصدور بما لا تطيـق ، حتـى أنـه أصبـح مـن العسير أن يـرد عليـك إنسان بما ترضى به نفسك وإن أرضاك فهو خـادعك ، وإن لم يخدعـك فهـو إما خاذل لك ، أو مقصِّر فى حقك .. و **﴿ .. لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾**

.. الروم/٤ .. سعة الصدر التى امتلكها هؤلاء العلماء جعلت من الأرض مُتّسعاً بعد ما ضاقت النفوس بما فيها وما حولها .. لقد كانوا ولازال بيننا من العلماء ما يجعلك وكأنك تعيش فى حديقة غنّاء بعد ما تكون الدنيا قد أظلمت ، وحسبت أن سواد الليل لن ينجلى .

لقد أتى رجلاً إلى البصرى فقال : يا أبا سعيد : إنى حلفت بالطلاق، أن الحجاج فى النار ، فما تقول ؟ أُقيم مع امرأتى أم أعتزلها ؟ فقال له : قد كان الحجاج فاجراً فاسقاً ، وما أدرى ما أقول لك ؟ إن رحمة الله وسعت كل شئ ، وأن الرجل أتى محمد بن سيرين فأخبره بما حلف فردّ عليه شبيهاً بما قاله البصرى فأتى عمرو بن عبيد ، فقال له : أقم مع امرأتك فان الله تعالى ، إن غفر للحجاج لم يَضُرّك الزنا . حديث عذب وسهولة فى الفُتيا وإقناع وبصيرة نافذة وسعه صدر وحكمة بليغة ﴿ **وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ البقرة/٢٦٩.. فماذا تفيد السفسطة وماذا يفيد كثرة الحديث بين الناس حين قولهم : عَن مَنْ تم النقل ؟!! .. وعن مَن فى أغلب الأحوال تزيد الأمور تعقيداً ، وتخرج بنا إلى حيث لا رجوع للأصل ، وهذا من عمل الشيطان !! فيا من تتمسكون بالتوافه ، وتتعلقون باللغو ، وتحطون من شأنكم وشأن سامعيكم من حيث لا تشعرون .. كفاكم لَغطاً وسفسطة ... كفاكم عُراك وكفاكم جرى وهرولة فى أمور تضر ولا تنفع ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ .

والموعظة الحسنه التى أخذتنا بعيداً بعض الشيء تحتم علينا أن نواصل الحديث عن عذوبتها ويسرها وسهولتها التى تستقطب العقول ... فلقد كان البصرى يوماً فى جنازة وفيها نواح ومعه رجل ، فهمَّ الرجل بالرجوع فقال له الحسن : يا أخى إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حُسنا أسرع ذلك فى دينك . ولما قيل له : ألم تر كثرة الوباء ؟ قال : أنفق ممسك ، وأقلع مذنب ، واتعظ جاحد . وذات مرة نظر إلى جنازة قد ازدحم الناس عليها ، فقال : ما لكم تزدحمون ؟ ها تلك هى سارتيه فى المسجد أقعدوا تحتها حتى تكونوا مثله .

ومع ذلك لم يسلم البصرى من الناس فمنهم من أشاع عنه يريد إنقاص قدره أو الإساءة إليه ، ومنهم الحاقد والحاسد ومن هو صاحب هوى فى نفسه ، ولكن الله يقيض من يرد هذه الأكاذيب .. فقد قال حماد بن زيد بن أيوب : كذب على الحسن البصرى من الناس ضربان : قوم القدر يريدون تنفيقه فى الناس بالحسن ، وقوم فى صدورهم شنآن وبُغض للحسن، وأنا نازلته غير مرة فى القدر حتى خوَّفته بالسلطان ، فقال : لا أعود فيه بعد اليوم ، فلا أعلم أحداً يستطيع أن يعيب الحسن إلاّ به ، وقد أدركت الحسن والله وما يقوله . وقال سليمان الشيمى : رجع الحسن عن قوله فى القدر ، ولذا روى عن الحسن قوله : من كذب بالقدر فقد كفر .

والموعظة الحسنة نعمة من الله تأتى العبد فإن قَبلها يشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد بها إثماً ، ويزداد الله عليه سخطاً ...

ولقد جاء الأوزاعى (من أئمة أهل الشام) إلى أبو جعفر المنصور خليفة أمير المؤمنين يوماً ، ولما دخل إلى مجلسه قال له الخليفة : ما الذى بطأ بك عنا يا أوزاعى ؟ قال : أنظر يا أمير المؤمنين ، ألا تجهل شيئاً مما أقوله لك ! قال الخليفة : وكيف أجهله وأنا أسألك عنه ، وفيه وجهت إليك ، وأقدمتك له؟ قال : إن تسمعه ولا تعمل به يا أمير المؤمنين ، من كره الحق فقد كره الله ، إن الله هو الحق المبين ؛ فصاح به الربيع (وكان جالساً) وأهوى بيده إلى السيف ، فانتهره المنصور ، وقال : هذا مجلس مثوبة وليس مجلس عقوبة !!.. لقد طابت نفسى من الكلام ؛ فقال الأوزاعى : يا أمير المؤمنين حدثنى مكحول عن عطية بن يسر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أيما عبد جاءته موعظة من الله فى دينه فإنما هى نعمة من الله سبقت إليه ، فإن قبلها يشكر ، وإلا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد بها إثماً ، ويزداد الله عليه سخطاً .فأين نحن من هؤلاء العلماء الأفاضل ، وهل يستطيع العلماء اليوم أن يُسْدوا النصيحة إلى ذوى السلطان مثلما فعل الأوزاعى ؟! وحتى إذا فعلوا ... فكم من أصحاب السلطان يستمعون ويقبلون شكر الله عليها .. فأين تذهبون ؟! يا من تستمعون ولا تجيبون دعوة الداعى ... أين تذهبون؟! يا من تجحدون بنعمة الله .

ويواصل الرجل حديثه إلى المنصور فيقول حدثنى مكحول عن عروة ابن رويم قال : كانت بيد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جريدة رطبة يستاك بها ، ويردع بها المنافقين ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد

هذه الجريدة التى قد كسرت بها قرون أمتك ، وملأت بها قلوبهم رعبا ؟! يا أمير المؤمنين إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد دعا إلى القصاص من نفسه فى خدشه خدشها إعرابياً لم يتعمده ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً ولا متكبراً ، فدعا النبى (صلى الله عليه وسلم) الأعرابى فقال له : إقتص منى ؛ فقال الأعرابى : قد أحللتك ، بأبى أنت وأمى ، وما كنت لأفعل ذلك أبداً ، ولو أتيت على نفسى فدعا له الله بخير . فأين تذهبون ؟! ... مَن منا يتصرف هكذا أو يستطيع ، وبصرف النظر عن أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان طرفاً فى القصة السابقة ، فلو افترضنا جدلاً أن هذه القصة حدثت بين اثنين أى اثنين فمن منهما يمكن أن يتصرف بهذه الطريقة ويتسامح هكذا !! .. مَن منا يطلب القصاص مِن نفسه ومَن مِنا يترك حقه متسامحاً بالمقابل .. لا أرى هذا يحدث .. فأين تذهبون ؟!

فطوبى لهؤلاء العلماء الإجلاء ... ولهؤلاء الناس الذين يقتدون بهديهم وهدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من قبلهم .. فطوبى للمحرومين ، الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ليس فى نصيب من مال أو طعام فحسب ، وإنما فى كل عمل حتى ولو كان بأيديهم أن يأخذوا بقصاصهم فيتنازلون طواعية عنه .. فطوبى لهم .. فطوبى لهم .

ولا يفوتُنا أن ننهى هذا الفصل فيما رآه النائم فى المنام إلهاماً من الله .. حينما رأى يزيد بن منصور الأوزاعى فى أثناء نومه .. فقال له : يا

أبا عمرو ، دلني على درجة أتقرب بها إلى الله عز وجل ، قال : ما رأيت هناك أرفع من درجة العلماء ، ومن بعدها درجة المحرومين . فسلام عليكم ... وهنيئاً لكم ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ . النساء/٦٩.





الفصل الخامس

ثوب الأمانة ممزق .. !!


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثوب الأمانة ممزق ...!!

حينما استشعر أن ثوب الأمانة أصبح ممزقاً قالها وهو يعتصر من الألم .. مرارة لم يعد قادراً إنكار طعمها .. ومع ذلك كان رقيقاً إلى أبعد الحدود فحاول إيهام من حوله أو ربما تصور هو أن ثمة نسيج لازال باقياً من خيوط الأمانة فبدت في ثوبها ممزقاً ..!! لم يكن يتصور أن ما تبقى من ثوب الأمانة سوف يأتي عليه زمان (ما نحن فيه الآن) ينتزع فيه ، فتبقى الأمانة عارية !! .. ولقد حدث ما لم يكن يتصوره وأصبحت الأمانة عارية تماماً ، ويا ليتهم تركوها عارية فحسب ، إنما قطعوا رأسها بعد تعريتها ، فربما بقى منها شيئاً يمكن من خلاله التعرف عليها ، فقد تدل الرأس على الشيء أي شئ فتفتح الطريق للوصول إلى حقيقة لا يريدونها .

ولأنهم قطعوا رأسها فقد أرادوا التمثيل بها فيلتفت الناظر أول ما يلتفت إلى باقي الأجزاء لعله يجد مفاجآت أخرى .. ولكن أي مفاجأة بعد ذلك !؟ .. إنها الأمانة الموؤدة في طريقها إلى مثواها الأخير .. ولكن هيهات أن يدفنوها ، ليس لأن أحداً سيمنعهم ، ولكن حتى تكون رأى العيان لمن تسوِّل له نفسه أن يتمسك بها ، فينظر ليجد الميراث منتهكاً، والجثمان مشوَّهاً ، والحقيقة ضائعة ، والبرهان لا يمكن القيام عليه بحال . أراد أبو حيان التوحيدي منذ اكثر من ألف سنة أو يزيد أن يصور الأمانة التي اغتصبوها وحاولوا هتك سترها ، فلم يجد سوى هذا التعبير (الذي أراه رقيقاً) الذي

يصور به حالها ، ولو أنه عاش إلى يومنا هذا لرأى ما لم يكن يتخيله في أسوأ الأحوال ، وما لم يكن يحتسب بحال من الأحول. كان الرجل يتحدث عن الأمانة من خلال الغربة التي يعانيها وسط أهله وفى وطنه ، ولذلك اتخذ من الغريب في كل مكان وزمان الشخصية التي يجد من خلالها ما يدور من ضياع وتضييع لكل شئ وأي شئ ، أراد أن يبدأ بالوحشة التي تُداخل النفس وتفرضها الظروف المحيطة به ، فقال : الغريب من إذا دعا لم يُجب ، وإذا هاب لم يُهب .. الغريب من "إذا" استَوْحش استُوحِش منه ، لأنه يرى ثوب الأمانة ممزقاً !! .. هكذا رأى الرجل أن ما يحدث هو العكس وبدلاً من أن يجد الغريب من يوحش أُنسه وحاله وما وصل إليه من هلاك نفسي وضياع فكرى يجد أن العكس قد حدث ، وأن الناس يستوحشون منه ... سبحان الله .. ويواصل الرجل فيقول ! استَوْحش منه لأنه يجد لما بقلبه من الغليل محرقاً ، فالغريب من فجعته محكمة ، ولوعته مضرمة ، الغريب من لبسته خرقة ، وأكلته سلقة ، وهجعته خفقة .

وهنا يبرز السؤال .. من جعلنا غرباء في أنفسنا قبل أن يجعلونا غرباء في أوطاننا ؟! .. أولئك الذين ضيّعوا الأمانة وفرّطوا فيها .. فضياع الأمانة هو ضياع الأمان ، وضياع الأمان هو ضياع لكل شئ ، فلا يبقى شئ بعدها يعيش الإنسان من أجله ؛ لذا رأى الرجل أن ثوب الأمانة ممزق ، ولم يكن يدرى أن الثوب في طريقه للانتزاع كُلّية بعدما استكثروا ما تبقى منه على جسدها ؛ لم ييأس الرجل لهذه الحال ، وتوجّه للغريب الذي ضيعته الأيام

والظروف ، توجّه إليه بالحديث لعله يجد خيطاً يتشبث به أو حبلاً لنجاة ، فلا ضير أن يكون ثمة أمل موجوداً رغم هتك الستر وكشف الحجاب ... فيقول : دع هذا كله ! الغريب من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعياً إليه ، بل الغريب من تهالك في ذكر الله متوكلاً عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قالياً (تاركاً) لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضاً لجدواه . فهل تستطيع عزيزي القارئ أن تهب نفسك لله متوكلاً عليه إذا شعرت بالغربة في نفسك ... ليس أمامك إلاّ أن تفعل ، وإلاّ سوف يُنزع عنك ما تبقى من الثوب ، فتظهر سوءتك وترى ما لا تحب !! .

يتوجه بعدها أبو حيان إلى السائل عن الغريب فيقول : أيها السائل عن الغريب! إعمل واحدة ولا أقل منها ، وإذا أردت ذكر الحق فانس ما سواه ، وإذا أردت قربة فابعد عن كل ماعداه ... لماذا قال الرجل ذلك ؟ .. لأنه يعلم أن الحق أو الحقيقة هي رأس الأمانة التي جردوها من ثوبها ، فإذا أردت الإقتراب من الحق فانس ما سواه ، وإذا أردت قربه فابعد عن كل ماعداه ... معادلة سهلة وبسيطة ، ولكن مَنْ منا يستطيع تنفيذها بهذه السهولة التي سِيقت بها ؟.. وإذا أردت المكانة عنده فدع ما تهواه لما تراه ، وإذا أردت الدعاء إليه فميزٌ ماالك مما عليك في دعواه ... فطاعاتك كلها مدخوله ، لذلك هي ليست مقبولة ، هممك كلها فاسدة ، فلذلك ليست هي صاعدة ، أعمالك كلها زائفة ، فلذلك ليست نافعة ، أحوالك كلها مكروهة ، فلذلك ليست هي مرفوعة ، ويلك ! إلى متى تنخدع ، وعندك أنك خادع ؟ وإلى متى تظن أنك رابح وأنت خاسر ؟ وإلى

متى تدعى ، وأنت منفى ؟ والى متى تحتاج ، وأنت مكفى ؟ وإلى متى تبدى القلق ، وأنت غنى ؟ والى متى تهبط ، وأنت عَلىْ ؟ ما أعجب أمراً تراه بعينك ، ألهاك عن أمر لا تراه بعقلك ! قد وا لله فسدت فساداً لا أرجوك معه لفلاح ، ولذلك ما أدرى بأي لسان أحاورك ، وبأي خلق أجاورك ، وفى أي حقيقة أشاورك، وبأي شئ أداورك ؟ سرك كفران ، ولفظك بهتان ، وسرورك طغيان ، وحزنك عصيان ، وغناك مرح وبطر ، وفقرك ترح وضجر ، وشبعك كظة وتخمة ، وجوعك قنوط وتهمة ، وغزوك رياء وسمعه ، وخجك حيلة وخدعة ، وأحوالك كلها بهرج وزيف ، وأنت لا تحاسب نفسك عليها !!

كان الرجل إذن رقيقاً إلى أبعد الحدود حينما رأى أن ثوب الأمانة ممزق ، ولم يكن يعلم أن هذا الثوب لم يبق منه شيئاً الآن في هذا الزمان فما أعجب أمراً تراه بعينك ، ألهاك عن أمر لا تراه بعقلك ... ففي أي حقيقة نتشاور إذن وقد تم قطع رأس الأمانة وتم دفن الحقيقة إلى الأبد ، فلم تعد الحقيقة عارية كما كان يقال ولكنها لم تعد موجودة أصلاً حتى نتجادل حولها أعارية هي أم أنها مُجّردة فحسب!!؟ وما الفرق وقتها بين العرى والتجريد بالمعنيين المادي والمعنوي .

يحاول الرجل أن يجد بصيص أمل في صلاح يرجوه وينشده من بين الأطلال ، فيقول : ما أسعد من كان في صدره وديعة اللـه بالإيمان فحفظها حتى لا يسلبها منه أحد ! أتدرى ما هذه الوديعة ؟!! هي والله وديعة رفيعة هي التي سبقت لك منه وأنت بددٌ في التراب لم تجمعك الصورة ، ولم يقع

عليك اسم، ولم تعرف لك عين ، ولم يدل عليك خبر ، ولا يحويك مكان ، ولم يصفُك عيان ، ولم يحُطك بيان، ولم يأت عليك أوان ، أنت في ملكوت غيب الله ثابت في علم الله عَطِل من كل شئ إلا من مشيئة الله ، ترشح لمعرفته ، وتلحظ في صفوته ، وتؤهل لدعوته ... إنها إذن الأمانة ... تلك الوديعة التي سبقت من الله إلينا كل فرد على حده ... فمن حافظ عليها ... ومن فرّط فيها ؟. ولأن الرجل لم يجد صدى لدعواته المستمرة خاطب المستمع بثقيل الكلام لعله يتعظ أو تكن له أُذن واعية ، فقال : يا هذا ! أحجر أنت ؟ فما أقسى قلبك ! وما أذهبك فيما يغضب عليك ربك ! أبينك وبين نفسك ترة أو كيد ؟ هل يفعل الإنسان العاقل بعدوه ، ما تفعله أنت بروحك ؟ لا ينفعك وعظ وإن كان شافياً ، ولا ينجح فيك نصح وإن كان كافياً ! اللهم تفضل علينا بعفوك إن لم نستحق رضاك يا ذا الجلال والإكرام.

حاول أبو حيان التوحيدي قدر الإمكان تحريك مشاعر الناس وتقريبهم إلى الحقيقة وإن كانت مفجعة ، حاول أن يهز وجدانهم لعله يجد صدى لكلماته ومواعظه .. ولكن لم يحرك أحد ساكنا !! . فأين تذهبون ؟ يا من فرطتم في الأمانة ... وأين تذهبون ؟ يا من ضيَّعتم أماناتكم ! .. وأين تذهبون ؟ أيها الظالمون الجاهلون ! . وإذا كان لا ينفعك أيها الظالم الوعظ وان كان شافياً ، ولا ينجح فيك النصح وإن كان كافياً ! فماذا سينفعك إذن، ومتى سيتحرك قلبك ، وكيف ستحفظ وديعة الأيمان كما أعطاها الله لك وسبقت منه إليك .

ووديعة الأيمان لا تحفظ ولا تصلح إلا بصالح الأعمال والذي يأتي معه الفرج من بعد ضيق والنجاة من كل كرب عظيم ... وفى هذا يحكى لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قصة ثلاثة شبان أخلصوا العمل لله ، فلما وقعوا في محنه تذكرَّوا صالح أعمالهم ، فدعوا الله أن يفرِّج كربهم ببركه إخلاصهم ، ويحكى لنا رسولنا الكريم قصتهم فيقول : إنطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت في غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً : أي يؤثرهما بالشراب فنأى بي طلب الشجر يوما ، فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما ، فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أو قظهما ، وأن أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما ، حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي (أي كانوا يتصايحون) من الجوع فاستيقظا فشربا غوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه . قال الأخر: اللهم إنه كانت لي إبنة عم كانت أحب الناس إلى فأردتها على نفسها ، فامتنعت منى ، حتى ألمت بها سنة من السنين أي أصابتها سنه قحط فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائه دينار حتى تخلى بيني وبينها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت إتق الله ، ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى ، وتركت الذهب الذي أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك

ففرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : اللهم استاجرت أُجَراء ، وأعطيتهم أجْرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد الله أدِّ إليّ أجرى فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والفتح والرقيق . فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت : لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه ، فلم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون . هذه هي وديعة الأيمان التي سبقت من الله إليك دون فضل منك .. **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾** يونس/٩ .

وحقيقة الأيمان تزيل الوحشة من النفوس وتنفى الغربة من الصدور ، فلا يصبح الإنسان غريباً في نفسه حتى وإن بدا غريباً في وطنه أو بين أهله . والأمانة التي أصبحت عارية تماماً بعدما مزقوا ثوبها في البداية ليست إلا نتيجة للتفريط والتقصير ، وحقيقة الإيمان إذا اكتملت بفضل الله لدى الإنسان ، تكون باب النجاة من كل كرب عظيم .. فلقد رأينا في القصة السابقة ان الإيمان هو حارس الأمانة وهو الكنانة لكل صفة حميدة أنعم الله بها على الإنسان ... فأين تذهبون ما من فرطتم في الأمانة بعد أن ضاع إيمانكم ؟!.. فأين تذهبون يا ولاة الأمور الذين قيَّضكم الشيطان فهو وليكم اليوم ؟! .. فأين تذهبون ما من تأكلون أموال اليتامى وتسفكون الدماء وتعثون في الأرض فساداً ؟! فأين تذهبون ؟ فأين تذهبون؟

وحينما يتحدث أبو حيان التوحيدي عن الغريب فهو يتحدث عن الغريب الذي ضيعته الأيام وداسته الليالي ومزّقه الظلم كل ممزق ، وهو يرى فى ذات الوقت أنه ظالم لنفسه حينما يقول : ويلك ! إلى متى تنخدع ، وعندك أنك خادع ! وإلى متى تظن انك رابح ، وأنت خاسر ! وإلى متى تدعى ، وأنت منفى ! والى متى تحتاج ، وأنت مكفى ! .. إذن فالغريب ظالم لنفسه أيضاً فهو شريك فيما وقع عليه لأنه لم يفهم بعد ولا يحاول جاهداً أن يفهم أنه خادع لنفسه ، ولكن أرى في الظالم أيضاً أنه غريب رغم أن الوحشة كلها في نفس المظلوم والغربة كلها في صدر المكلوم ، والجراح كلها ليست إلا من نصيب المهزوم .. !! .. كيف ذلك ؟! .. إن الظالم غريب أيضاً لأن طاعاته (إن وجدت) كلها مدخوله ، فهي ليست مقبولة .. فهو غريب .. وهممه كلها فاسدة ، فهي لذلك ليست مرفوعة ، وأحواله كلها زائفة ، فهي ليست نافعه ، فهو غريب مع نفسه ، ومع أهله ، وفى وطنه ، وفى ضميره حتى وان كان فيه بصيص من ضمير !!

لقد جرّدوا الأمانة من ثوبها بعدما مزّقوه .. فترى الأمين في أي مكان عُرياناً إلا من ستر الله الذي بداخله وحسبه ذلك . فالأمين كان ولا يزال وسيظل مكلوماً من شدة ما يلاقى ممن حوله ... فالأمين في عُرف الناس (خاصة هذه الأيام) خائن ، والخائن أمين !! ... خائن لأنه لا يجارى من حوله فهو استثناء ، وهو شاذ ، وهو غير متعاون ، وهو متشنجٌ ، وهو متشدد، وهو منطوى ، وهو مارق ، وهو سارق ، وهو رأس الفساد ، وعدو العباد ، وهو حاقد ، وهو مغلول ، ... الخ من الموبقات !!.. ويا حسرة على

العباد .. يا حسرة على العباد !! ويا أسفي على يوسف فيوسف هو الأمانة التي أرادوا تضييعها ، لولا رحمة ربك، ويوسف كان الوديعة التي لم يحافظوا عليها ، لولا رحمة ربك، ويوسف كان الحقيقة الوحيدة التي أرادوا دفنها ، لولا رحمة ربك ، ويوسف كان النور بينهم فأرادوا أن يطفئوه ، ﴿ **وَيَأْبَى اللـه إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ التوبة/٣٢ .

الغربة موحشة بلا شك ، وكثيرٌ منا أصبح غريباً ، .. وإن كنت أؤكد أن الظالم نفسه يشعر بها ، وإن كان البون شاسعاً ما بين غربة المظلوم وغربة الظالم ، فلكل غربة طعمها ومرارتها ، وحتى حلو المذاق الذي يستشعره الظالم لابد وأن به لذعة ، وأن ما بين حين وأخرى تؤرقه لوعة .. لوعة مبعثها وخذ ضمير قد يستيقظ لبضع ثوان ، ولكنه سرعان ما يعود إلى موات طويل ... وحقيقة الفارق في الغربة بين الظالم والمظلوم ، تكون بقدر القرب أو البعد عن الحق كلٌ حسب شاكلته .. فويلك ! أيها الظالم .. إلى متى تنخدع ، وعندك انك خادع ! وحسبك اللـه أيها المظلوم فلن تظل مخدوعاً إلى الأبد ... وان حدث حتى آخر يوم في حياتك ، فإنه يكون لصالح أعمالك ، وستُحْسب لك وليس عليك .. ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾ فصلت/٤٦ .





الفصل السادس

إرتفعت الشبهة .. !!



إرتفعت الشبهة ...

خصوم القرآن كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ولا عجب أن نجد ألآف المستشرقين يغوصون مثل الجان على أيام سيدنا سليمان ليبحثوا ويلتقطوا أى كلمه أو حرف فيها تشابه أو تضاد أو أية مسائل لغوية أو نحوية أو بلاغيه لتؤيد - حججهم الواهية وأسبابهم الضعيفة - أن القرآن متضارب وفيه من التناقض و التضاد ما يجعله ضعيفا لا يقنع حتى أصحابه ، فأعداء كتاب الله كثيرون لا يعلمهم إلا الله وحده ، ولكن العجب العجاب هو فى بعض المتفلسفين من المسلمين ضعاف النفوس والحُجّة والذين يزجون بأنفسهم فى بحر القرآن العظيم محاولين تأويل بعض الآيات على مزاجهم ، وخلط الأمور ، وادعاء إكتشافهم ما لم يستطع أحدُ اكتشافه : إما ابتغاء الفتنة ، أو ابتغاء الشهرة الرخيصة التى يقصر أجلها بطبيعة الحال ، وإما استعذاباً للمخالفة لمجرد المخالفة ... والله تعالى أعلى وأعلم ..

وقبل أن أقول لهم .. فأين تذهبون يا هؤلاء ؟ .

سأجعلكم تحكمون أنتم عليهم ، ثم تقولون أنتم لهم نيابة عنى فأين تذهبون ؟

استطاع ابن قتيبة فى كتابه العظيم (تأويل مشكل القرآن) أن يَرُد على خصوم القرآن ، وأفاض فى ذكر العدد من المسائل اللغوية والنحوية والبلاغية التى تؤيد دفاعه عن القرآن . (ولمن أراد الإطلاع الرجوع إليه)

غير أن الأمام ابن تيمية وضع كتابا خاصا لمناقشة قضية التأويل في المتشابه من الآيات في كتاب سماه (الإكليل في المتشابه والتأويل) فقال أوّل ما قال: ما يعلم تأويله إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب كقوله منه ، ومنه ﴿ **فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ آل عمران/٧ فهذا صحيح ، فإن جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها أخبار عن الغيب الذي أُمرنا أن نؤمن به لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله، وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصّلٌ بقوله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ** ﴾ الأعراف/٥٢-٥٣ فجعل التأويل للكتاب المفصّل ، وإذا كان التأويل للكتاب كله والمراد به ذلك ارتفعت الشبهة وصار هذا بمنزلة قوله ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ "الأعراف/١٨٧" إلى قوله تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الله** ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ الأحزاب/٦٣ ، فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله، وإنما هو علم وقتها المعيّن وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أُخبرنا به ؛ فعلم تأويله كعلم الساعة ، والساعة من تأويله وهذا واضح بيِّن .

ولا ينافى كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن تُفسر النصوص المبينة لأحوالها ، وإن كان الضمير عائداً إلى ما تشابه ، كما يقول كثير من الناس ، فلأن المخبر به من الوعد والوعيد متشابه بخلاف الأمر والنهى ، ولهذا فى الآثار العمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه ؛ لأن المقصود فى الخبر الإيمان ، وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه بخلاف الأمر والنهى فانه متميز غير مشتبه بغيره .

وطالما تحدثنا عن أخبار الغيب ، فلا يمكننا أن نترك ذكر المعجزات الإلهية النى أنعم الله تعالى بها على رسوله دون ذكر الآية الكريمة ﴿ **وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** ﴾ الأنعام / ٥٩" فمن الحقائق المسلم بها بين أهل الإيمان ، أن الذى انفرد بعلم الغيب هو الله ، فهو وحده الذى أحاط علماً بما كان ، وبما هو كائن ، وبما سيكون . ولقد تفضّل الله على رسوله الكريم فحدّثه بأمور غيبية ، كانت عوناً له فى نشر رسالته ومعيناً على أعدائه المكذبين ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۞ إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ** ﴾ الجن/٢٦.

ولنا فى ذلك أمثلة كثيرة تحكى لنا من شئون الغيب وابلغنا بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكانت عَضُداً له ولأصحابه كلما

اشتدت المحنة . فقبل الهجرة حينما اشتد أذى المشركين للرسول (صلى الله عليه وسلم) وتعذيب أصحابه المستضعفين جاء خباب بن الأرت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسأله أن يدعو لهم ويستنصر لهم الله ليكفيهم شر هذا الأذى ؛ فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) : "إصبروا فقد كان يؤتى بالرجل من قبلكم فينشر بمنشار من حديد ، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، ما يصرفه ذلك عن دين الله .. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ؛ وقد تحقق ما أخبر به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتمت الهجرة ؛ وتتابعت الفتوحات والانتصارات ، ودخل الناس دين الله أفواجاً ؛ فعم السلام والأمن ، ولم يعد هناك فى طريق المسافرين ليلاً أو نهاراً لصوص أو قطاع طرق ، وصار الجميع مطمئنين ، لا يخافون إلا الله والله وحده عليهم رقيب .

ومثال آخر على أخبار الغيب للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) .. فقد قال النبى يوما : لأمهات المؤمنين إنَّ أسرعكن لحوقاً بى أطولكن يداً، فكانت أمهات المؤمنين يقسن أيديهن ، فيجدن أن سودة - رضى الله عنها - هى أطولهن يداً ، ولكن التى سبقتهن جمعياً إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد وفاته كانت أم المؤمنين زينب بنت جحش، فعرفن أن طول يدها كناية عن كثير عطاياها ، وإحسانها إلى الفقراء والمساكين ... والأمثلة فى شئون الغيب كثيرة .

وعودة مرة أخرى إلى التأويل (بعد أن ابتعدنا بعض الشىء) نذكر من تأويل العلماء بعض المتشابهات : فيقول الأمام الرازى فى الأنموذج الجليل (٢) فى تفسير المتشابه فى سورة " الأحزاب" فإن قيل : كيف قال الله تعالى (يا أيها البنى) و لم يقل : يا محمد كما قال تعالى (يا موسى) ، (يا عيسى) ، (يا داود) ونحوه ؟.

قلنا : إنما عدل عن ندائه باسمه إلى ندائه بالنبى والرسول إجلالاً له وتعظيماً كما قال تعالى ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ** ﴾ التحريم /١ .، ﴿ **يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ** ﴾ المائدة/ ٦٧.

فان قيل : لو كان ذلك كما ذكرتم لعدل عن اسمه إلى نعته فى الإخبار عنه كما عدل فى النداء فى قولى تعالى : (محمد رسول الله) – (سورة الفتح) – وقوله تعالى ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ آل عمران/١٤٤ .

قلنا : إنما عدل عن نعته فى هذين الموضعين لتعليم الناس أنه رسول الله، وتلقينهم أن يسمُّوه بذلك ويدعوه به ، ولذلك ذكره " بنعته" لا بإسمه فى غير هذين الموضعين فى مواضع الإخبار ، كما ذكره فى النداء : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾ التوبة/١٢٨ .

وقال فى تفسير المتشابه من سورة الحشر(٣): فان قيل: كيف قال الله تعالى(لغد) وأراد به يوم القيامة ، والغد عبارة عن يوم بينه وبيننا ليله واحدة.

وقلنا : الغد له مفهومان : أحدهما ما ذكرتم . والثانى : مطلق الزمان المستقبل ومنه قول الشاعر :

واعلم ما فى اليوم والأمس قبله

ولكننى عن علم ما فى غد عمى

وأراد به مطلق الزمان المستقبل كما أراد بالأمس مطلق الزمان الماضى ، فصار لكل واحدٍ منها مفهومان ، ويؤيده أيضا قوله تعالى ﴿ **كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ** ﴾ يونس /٢٤ ، وقيل إنما أُطلق على يوم القيامة اسم الغد تقريباً له كقوله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ** ﴾ القمر /١ . وقوله تعالى ﴿ **وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ** ﴾ النحل /٧٧ . وكأنه تعالى قال : إن يوم القيامة لقربه يشبه ما ليس بينكم وبينه إلا ليله واحدة ، ولهذا روى عن البنى (صلى الله عليه وسلم) أنه قال (إعمل لليلة صبيحتها يوم القيامة) . قالوا أراد بتلك الليلة ليلة الموت .

ومن الأمام الرازى رحمة الله عليه إلى نموذج من منهج الكرمانى فى دراسته للمتشابه فى كتابه " البرهان" حيث يقول فى متشابهات سورة " الأنعام " : ﴿ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ "٢٠ /١٢" ليس بتكرار : لأن الأول فى حق الكفار ، والثانى فى حق أهل الكتاب .

وقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللـه كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ الأنعام/٢١ وقال فى يونس ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ** ﴾ ١٧

وختم الآية الكريمة بقوله: ﴿ **إِنَّــهُ لاَ يُفْلِـحُ الْمُجْرِمُـونَ** ﴾ ١٧ لأن الآيات التى تقدمت فى هذه السورة عطف بعضها على بعض بالواو ، وهو قوله : ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَـغَ** ﴾ إلى ﴿ **وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ ثم قال: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ** ﴾ وختم الآية بقولـه ﴿ **الظَّـالِمُونَ** ﴾ ليكون آخر الآية وفقاً لأول الأولى .

وأما فى سورة يونس ، فالآيات التى تقدمت عطف بعضها علـى بعض بالفاء ، وهو قوله : ﴿ **فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُون** ﴾ /١٦ ثم قال ﴿ **فمن أظلم** ﴾ بالفاء وختم الآية بقوله : ﴿ **الْمُجْرِمُونَ** ﴾ أيضا ؛ موافقة لما قبلها ، وهو ﴿ **كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَـوْمَ الْمُجْرِمِينَ** ﴾/١٣ فوصفهم بأنهم مجرمون ، وقال بعده : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴾/١٤ فختم الآية بقوله : ﴿ **الْمُجْرِمُـونَ** ﴾ ؛ ليعلم أن سبيل هؤلاء سبيل من تقدمهم .

وقوله ﴿ **وَمِنْهُـمْ مَـنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْـكَ**﴾ الأنعام /٢٥ ، وفى يونس ﴿**يَسْتَمِعُونَ** ﴾ ٤٢ ؛ لأن ما فى هذه السورة نزل فى أبى سفيان ، والنضر بن الحارث ، وعتبة ، وشيبة ، وأمية ، وأُبى بن خلف ، فلم يكثروا كثرة من فى يونس ؛ لأن المراد بهم فى يونس جميع الكفار ، فحمل مرة هاهنا على لفظ (مَن) فوحِّدَ لقلتهم ، ومرة على المعنى فجمع ؛ لأنهم – هاهنا – قلّوا فكانوا – كالواحد – وجمع ما فى يونس : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْـكَ**﴾ /٤٣

فسيأتى فى موضعه إن شاء الله (تعالى) وقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ الأنعام ٢٧ . ثم أعاد فقال ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ الأنعام ٣٠ ؛ لأنهم أنكروا النار فى القيامة . وأنكروا جزاء الله ونكاله ، فقال فى الأولى: ﴿ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ وفى الثانية ﴿ إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ، أى على جزاء ربهم ، ونكاله فى النار ، وختم بقوله : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ الأنعام ٣٠.

وفى سورة الأنفال قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الأنفال٢- وقال جل وعلا فى سورة الرعد ٢٨ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ .. فكيف يتم التوفيق بين الآيتين والتعارض بين الطمأنينة ووجل القلوب ظاهر ؟! الإجابة : أنه لا تنافى بين الآيتين ، ولا تعارض بين الطمأنينة ووجل القلوب، فقد وردتا فى حالتين كلتاهما من صفات المؤمنين الكاملين، فالطمأنينة تكون بانشراح الصدر ، ومبعث ذلك حقيقة التوحيد التى تملأ صدور المؤمنين .. أما الوجل فيكون التقلب عن الهدى ، واضطراب القلوب من الخوف ، فمعنى (وجلت قلوبهم) أى خافت من هيبة الله واضطربت نفوس المهتدين خشيةً ورهبة من عظمة الخالق سبحانه ، وذلك حينما يتذكرون عقابه ، وشديد وعيده لمن ترك أوامره وابتعد عنه سبحانه .

ومعنى ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّه﴾ أنهم إذا ما نظروا فى نعم الله عليهم ، وذكروا مننه لديهم ، وإحسانه إليهم ، وسعه فضله ، وعظيم

مغفرته ، وبالغ رحمته ، وكثير ثوابه على الطاعات : اطمأنت قلوبهم ، وانشرحت صدورهم ، وحسن بالله ظنهم ، وسكنت نفوسهم إلى عفو الله تعالى بسبب ما أوتوا من قول المعرفة وعظيم التوحيد .

ولعل ما جاء فى سورة آل عمران/٧ يؤكد لأولئك الذين يستغلون المتشابهات فى أغراض دنيئة أنهم على باطل وأن زيغ قلوبهم هو محركهم فى الحياة ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ... فيقول تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ آل عمران/٧ فإلى الذين يبتغون الفتنة ابتغاء تأويل آيات القرآن .. أقول لهم .. فأين تذهبون .. فأين تذهبون !!.. ولعلنا فى إيجاز سريع نكون قد ، توصلنا – بفضل الله وعونه – إلى ما قصدناه من عنوان هذا الفصل .. ارتفعت الشبهة .. ﴿ **وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ .





Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

.. ما كشفت عن كتف أنثى قط !!



.. ما كشفت عن كتف أنثى قط !!

لم يستطع أن يدفع عن نفسه التهمة التى ابتلاه الله بها ! فلقد وقعت وقُضِي الأمر ، ولم يجد من يدافع عنه بل العكس هو الصحيح ، والرواية محبوكة ، والتهمة كاملة ، والمشانق معلّقه ، والقاضى هو الجلاد ... أقصد القضاة هم الجلادون ؛ فيا ليت الأمر اقتصر على قاض واحد وجلّاد واحد .. إنما تطوّع الجميع وبلا مقابل وبدون مجهود يذكر لينقضّوا على الذبيحة التى وقعت بين أيديهم ؛ لم يكن أمامه إذن إلا أن يكظم غيظه ففوض أمره إلى الله ، مدافعاً عن نفسه ما استطاع ؛ فقال : سبحان الله ، فوالذى نفسي بيده ما كشفت عن كتف أنثى قط . قالها الرجل واحتسب ولم يكن حتى قد تزوَّج ليكشف عن أنثى أى أنثى ، وماجت المدنية وهاجت فيها الإشاعة وعلمها الجميع . لم يهدأ الرجل ولم يغمض له جفن طوال شهر كامل هو أقسى ما عاناه في حياته كلها ، فهو مثل من فقد عزيزا لا يعرف عنه شئ ، والفرقة والفقد أشد حسرة على النفس من الموت ، نفسه ، فالموت حقيقة مؤكدة ، يستسلم لها الجميع أما من يفقد شئ فهو يصير بين لوعه رجاء العودة والخوف من عدم العودة .. بين لهفة الأمل ومرارة الواقع .

... ولأن مع العسر يسرا كما وعد الله .. ولأن الله لا يضيع اجر المحسنين ، ولأن رحمة الله قريب من المحسنين ، لم ينقطع الرجاء ولكن لم تنطفئ النار في صدر الرجل . نزلت قطرات فوق النار ، فأوحت أن ثمة أمل

قادم ، ولكن سرعان ما تبخرت هذه القطرات ربما تاركة رائحة بخار يُهدِّئ النفوس شيئا ويوقف الوهيج لحظة ... كانت كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم حينما قال : لقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهل بيتي إلا معي . قالها الرسول ، ولكنه هو الآخر كان مكلوماً يتوجع لا يقطع بالتهمة ولا يبرئ المتهم منها ... ولم يكن الرجل ولا الرسول فقط في قلق وحيرة واضطراب ، فلقد كان هناك طرف ثالث أشد حيرة وأكثر قلقاً وبكاءاً ، ولكن ما عسى أن يفيد البكاء في مثل هذه الحالات ... حينما تكون التهمة ملفقة بشكل شيطاني لا فكاك منه ، وبطريقة تدعو للشك والريبة حتى أن الرسول نفسه وهو المختار من الله لم يستطع أن يبت في أمر هذه المسألة إلا أنه قال : إن كنتِ بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنتِ ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا أعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه . لقد علمتم الآن من هى : إنها عائشة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما الرجل فهو صفوان بن معطل السلمى وهو من الرجال الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمانة والإخلاص والتفانى في حب الله وصفاء النفس ونقائها.

ولنبدأ الحكاية : في غزوة بنى المصطلق أنتصر المسلمون وهزم بنى المصطلق هزيمة نكراء استطاع بعدها الرسول أن يحصل منهم على مغانم كثيرة وأن يسبى منهم ما شاء الله له وأن يقبل منهم الكثير ، وأن يفرح المسلمون بنصر من الله عزيزا مؤزرا ... لم يعجب ذلك المشركين بطبيعة

الحال .... وكان على رأس الكفر وقتهـا ذلـك الذئـب الأغـبر ابـن أُبـى بـن سلول ، فقد تكلم وقتها بكلام يجرح الرسول صلى الله عليه وسلم ويخـدش من مقامه الكريم ، وكادت الفتنة أن تقع بين صفـوف المهـاجرين والأنصـار غضبا من مقالة أبـن أبـىّ ، ولكـن الرسـول صلـى اللـه عليـه وسـلم فـوّت الفرصة على المنافقين ، فلم يمكّنهم مما أرادوا ، واحتـوى الموقـف بحكمتـه ، فأمر الجيش بالعودة إلى المدينة حتـى ينشـغلوا بالمسـير عـن الخـوض في القيـل والقال . ولكن اللـه مع ذلك ، ورغم الحكمة التى أظهرهـا الرسـول الكريـم كان يريد للمنافقين أن يلعبوا دورا أخر لحكمة لا يعلمها إلا هو .. فـالأقدار سائرة مهما توخينا الحكمة والحيطة والحذر ... فأنى لنا – مثلا – من حكمة رسول اللـه وهدوء وسعة صدر رسـول اللــه .. ولكـن لله تعـالى قـرار أخـر وحكمة بالغة لا يعلمها إلا هو .. ﴿ **حكمة بالغة فما تغنى النذر** ﴾ ..

كان القدر يُعِد لشيء أخر ورواية طويلة وقضية شـائكة ، لم تضعهـا تلك الكلمة التى يرددها الناس دون فهم وهـى "الصدفـة" فليـس هنـاك شئ اسمه الصدفة ... إنما الاسم الحقيقي لها إن كانت أصلا موجودة بيننا بالتداول " القدر " .. هذا هو المسمى الحقيقي لما يقـال عنـه " الصدفـة أو المصادفـة " ... ففي طريق العودة ، وقريباً من المدنية المنورة نزل الجيش ليستريح من عناء الطريق ومشقة السفر وإجهاد الحرب والكر والفر .. وما إلى ذلـك ؛ وكـان لابد من إنزال هودج السيدة عائشة (رضـى اللــه عنهـا وأرضاهـا) لقضـاء الحاجة والراحة قليلا على أن تعود إلى الهودج ... فلما قضت كل حوائجهـا

عادت إلى الهودج فإذا بها تتلمس صدرها لتجد أنها فقدت العقد الذي كان في رقبتها ... إذا لقد وقع منها على مقربه من مكان الهودج .... وعليها أن تذهب قريبا من المكان الذي كانت فيه تلتمس العقد ... وأخذت تتحثث حول المكان ، ولم يلحظها أحد ليساعدها ، وابتعدت قليلا ، ولم تكن بالطبع تتوقع أن يحدث كل ما كان ..وكم كانت فرحتها عارمة حينما وجدت العقد ... ولكنها فرحة لم تكتمل كما بقول المثل .. فلقد عادت لتجد الهودج والقافلة كلها غادرت المكان .. لقد ارتحلوا .. يا للأقدار .. لم يفطن أحد بخلو الهودج إذ كانت النساء خفيفة الوزن آنذاك ... ولما كان الهودج يحمل بأكثر من واحدة ، فإن دقة التمييز تضيع بين تعدد المميزين ، وفى ذلك يقول إبن القيم : فإن النفر لما تساعدوا على الهودج لم ينكروا خفته (أى لم يلحظوا خفته) ، ولو كان الذي حمله واحد أو اثنان لم تخف عليهما الحال ، بل إن شئت فقل إن سوء المواقف التى مرت على القوم في الغزوة وتعرضهم للفتنه التى سبقت، هذه الحادثة ساعدت على هذا الخلط، فقد تحركوا ليلاً ولا زالوا مجهدين ... وأنا أقول : أن القدر قد رتّب الحادث ولا داعي لما يُقال فى هذا الموضوع من أمر الفتنة ، أو الخلط أو السهو .. فالله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون .

ولقد أراد الله لهذا الحدث أن يقع بهذا الشكل ، وأن يتمثل بهذه الصيرورة فلِمَا التبرير في أمر قد أراده الله .. ولِما الكلام عن سهو وخلط كان أمراً من الله مفعولا !!؟ وتوالت الأحداث ووجدت السيدة عائشة

نفسها بمفردها ليس معها إلا الله وذلك الرسول الذي أرسله الله إليها . إنه أحد المتهمين في هذه الحادثة ... إنه صفوان بن معطل السلمي ويبدو أن القدر قد أخذ من اسمه فعطّلهُ لبعض حاجته ... فجأة تجده عائشة أمامها يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله ؟... نظرت إليه ، فهو رجل من رجال رسول الله، وهو يعرفها من قبل أن يُفرض الحجاب ... حملها على بعيره فهي في منزلة والدته كما يقول الله في كتابه العزيز **﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾** الأحزاب/٦ ، وانطلق سريعا آخذاً برأس بعيره ، لا يتكلم ولا يتفوه بكلمة واحدة ، ولا يتوقع نقيصة ولا مذمة تلحق به فيما بعد، فقد فعل ما يمليه عليه الله ورسوله ، إذ لا يستحق إلاّ الحمد على ما فعل . وجاءت الفرصة لفريق النفاق والفشل .. أصحاب النفوس الضعيفة المهترئة .. لقد فشلوا منذ قليل في إيقاع الفتنة وبعث الفرقة بين الاخوة ... وها هي الفرصة قد واتت والأكلة قد طابت ، والفتنة قد لاحت من جديد . وهكذا ضعيف النفس يتحين الظروف ليظهر ما تخفيه نفسه المريضة وليتعلل بما يقول وبما يدّعى ، وكان الصيد ثميناً ، والطعام هنيئاً ، يقول ابن القيم : ووجد الخبيث عدو الله ابن أُبى متنفساً ، فتنفس من كرب النفاق والحقد الذي بين ضلوعه ، فجعل يستحكى الإفك ويستوشيه (يزيد في الوشاية والإشاعة) ، يذيعه ، ويجمعه ، ويفرقه ... فعائشة امرأة وصفوان رجل ، ولقد انفردا معا في الصحراء ليس معهما أحد، إذاً .. إنه الاتهام بالفاحشة ، إنه التقول بالسوء ، إنه التكلم بالظن ... و

﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ .. والكلمة إذا خرجت من الفم لا تعود أبدا حتى ولو عاد اللبن إلى الضرع الذي خرج منه .

وتطاير الشرر ، وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يتقصى الخبر ، ويستوثق من المحيطين بزوجته دون علمها ،فلم تكن قد علمت شيئا حتى تلك اللحظة ، ويبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بأسامة بن زيد .. فيقول أسامة : يا رسول الله ، أهلك ولا نعلم منهم إلا الخير وهذا هو الكذب الباطل . ويقول على بن أبى طالب: لم يُضيِّق الله عليك والنساء سواها كثير .

وتقول بريرة : والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام على عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله . أجمع الثلاثة على طهارتها وإن كان قد أثير جدلاً حول مقولة عَلِى ، إلا أن علياً أراد أن يرفع الضيق عن الرسول صلى الله عليه وسلم ويُسرِّى عنه، ويرى بأن المعرة لا تلحق الزوج ولكنها تلحق الزوجة وأهلها إن ثبتت التهمة . وفى هذا يقول إبن القيم أن علياً أشار على الرسول أن يفارقها ويأخذ غيرها تلويحاً لا تصريحاً . وتتوالى الأحداث (نحاول الاختصار) حتى تأتى براءتها من السماء مباشرة كما طلب الرسول صلى الله عليه وسلم فمن المحال أن يزوِّج الله سبحانه وتعالى نبيه من امرأة ليست على خلق مستقيم ؛ ولم يحجب الله سبحانه لطفه على من ظُلِمت ، فأنزل

وحيه على رسوله مبرئا عائشة إلى يوم القيامة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ النور ١١

فقطع العليم الخبير المطلع بأسرار العباد بأن ما قيل ما هو إلا محض افتراء وكذب ، وتبقى المذلة إلى يوم القيامة لهؤلاء المبطلين المفترين ، ويؤكد الله ما آلوا إليه وما أصبحوا فيه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النور ١٩ .

من هنا أقول لأولئك الذين يرمون الناس بالسوء والفحشاء من دون جريرة ارتكبوها ...أذكرهم بآيات الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ النور ٢٣-٢٥ . هذا جزاء من يرمى مظلوماً امرأة كانت أو رجلاً بفاحشة أو سوء .. أو من يمس مظلوماً بما لم يقترف .. أو يرمى مظلوماً بما ليس فيه وما لم يفعل ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ و ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ . أقول لهؤلاء الخائنين الذين يخونون أمانة الله بالقول والعمل ... أقول لهؤلاء المفسدين الذين يسعون في الأرض فساداً ولا يصلحون ..

أقول لهم .. فأين تذهبون .. فأين تذهبون !! .. ثم ألتفت إلى المظلوم فأُذكّره بما قال يعقوب عليه السلام يوم أن كاد ينقطع رجاؤه في عودة الأمل في عودة ما فقد .. قال ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** ﴾ يوسف ١٨ .



الفصل الثامن

إذاً لارتاب المبطلون



إذن لارتاب المبطلون !

تلقف المستشرقون إحدى معانى الكلمات ، وعلى طريقة "وشهد شاهد من أهلها" استندوا إلى هذا التفسير ، فكان المعنى مطابقاً لهواهم ، أو لاقى فى أنفسهم حظاً كبيراً ، وتمسّكوا بما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية من معنى لكلمة : الأمى .. فلقد جاء حسب رواية دائرة المعارف الإسلامية معنى كلمة أمى : أى كل من هو من غير اليهود سواء كان ذلك من المشركين أو الوثنيين ، وبذلك التعريف يكون المستشرقون قد وجدوا ضآلتهم ، وتمسّكوا بما يجعلهم أصحاب حُجّة .. وعلى ذلك يصبح معنى قول الله تعالى فى الآية رقم ١٥٧ من سورة الأعراف ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** ﴾ ، يصبح معنى الكلمة المشرك أو الوثنى ، رغم أن هذا المعنى لم يُقرّه أحدٌ من أهل اللغة حتى الآن ... وبذلك يظل معنى الأمى هو الذى لا يقرأ ولا يكتب وليس المعنى الذى يستظل به المستشرقون .

ومن هذا المنطلق وجدنا أن غلاة المسلمين والضالين منهم يفسّرون الآيات التى تتحدث عن الأمية والأميين حسب مزاجهم الخاص ، فنرى فى قوله تعالى ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ الجمعة ٣/٢ .. نجد تفسيرهم لها : أن الأمية صفة ثابتة للمسلمين فى جميع العصور ، لأن

الله وصفهم بالأميين ، وعليه يجب أن تتحقق الأمية في المسلمين في كل العصور وحتى يوم القيامة ، وأن يتركوا التعليم في المدارس والجامعات وكل دور البحث والعلم﴿ **فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ** ﴾ ؟! .. كيف يحدث هذا مع أن الرسول(صلى الله عليه وسلم) عاصر فيمن عاصر كثير من اليهود الأميين ، وفيهم قال الله تعالى ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ** ﴾ البقرة/٧٨.. كذلك فإن وصف الأمة بالأمية كان خاصاً بعصر الرسالة ومن نزلت فيهم آنذاك وهم عرب الجزيرة العربية . فإذا ما أضفنا إلى ذلك : أن معيار (وآخرين منهم) لا تفيد لزوم الأمية لهؤلاء الآخرين ، بل تفيد شمولهم برسالة النبى ومن مهامها ﴿ **يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾ .

وحسبنا نعلم أن العلم ليس قاصراً على الكتابة والقراءة ، بل هناك وسائل أخرى كثيرة ومتعددة ومتجددة تظهر كل يوم سمعية كانت أو بصرية، وعلى ذلك فالأمية الموصوف بها النبى والأمة لا تعنى إلا عدم القراءة والكتابة . ومن حيث لا يعلمون أحباب رسول الله حاول الكثير منهم تعظيماً لشأن المصطفى (صلى الله عليه وسلم) إنكار أميته ، قاصدين تكريمه غير آبهين بأن هذا إعجاز القرآن ، ولو أنهم علموا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهم يعلمون – لا يحتاج إلى تكريم اكثر مما شرف به من القرآن ، لما حاولوا مخالفة القرآن بإنكار أمية الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلقد تناسى هؤلاء النفر أن اختيار الله للنبى(صلى الله عليه وسلم) ليكون

أمياً عن قصد إلهى ، حتى لا يشك أحد فى أن القرآن منّزلٌ من عند الله العلى القدير .. فلقد قال سبحانه ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ البقرة/١٥١ . ، والحكمة الإلهية استوجبت ألا يكون محمداً مطلعاً (لأنه أمى) – على الكتب السابقة عليه ، حتى لا يتعلل المشركون أن ما يقول به ليس وحياً من الله ، وإنما هو من تأثير تلك العلوم التى سبقته ومن تأليفه .. ولذلك قال الله تعالى ﴿ **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ العنكبوت/٤٨ .

فإلى أولئك الذين يشككون فى أمية النبى (صلى الله عليه وسلم) إيماناً منهم بأن ذلك له تعظيماً ، يجب ألا ينسوا ويضعوا نصب أعينهم أن ما فيه مخالفة للقرآن وحتى إن كان تعظيماً للرسول لا يمكن أن يقصد به خيراً ؛ فكيف نخالف الخالق من أجل مخلوق حتى لو كان النبى (صلى الله عليه وسلم) نفسه .. ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ .. فأين تذهبون يا هؤلاء .. فأين تذهبون !!.





الفصل التاسع

ما قدرى وما أنا .. ؟!


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما قدرى وما أنا .. ؟!

سألوا الشاعر المعروف بشار بن برد يوماً .. ماذا كنت تختار ؟! و لم يكن سائلوه يقصدون بالطبع إلا مداعبته ، فهم يرون أنه يطير بجناحيه شعراً؛ ويهيم قلبه بلطائف الكلمات عشقاً ، وتذكّر على الفور أن خفقان القلوب مثل جناح طائر العقاب دائم الخفقان ، وحضره فى ذلك قول الشاعر العظيم عمرو بين حزم :

لقد تركت عفراء قلبى جناح عقاب دائم الخفقان !!

لذلك لم يتردد بشار بن برد حينما خيرّوه .. لم يتردد أن يقول : تمنيت أن أكون طائر العقاب .. ولعل الرجل كان يعانى من كثرة الخفقان .. خفقان القلب .. وأنّات الفؤاد ، والرجل كان يريد ما هو أبعد من ذلك ، ولكنه تستر قليلاً وراء ما لا يقصد بالضبط ليصل إلى ما يقصد بالتمام .. فالعقاب كما قالت فيه العرب فى أمثالهم " أبصر من عقاب" .. ولعل بصيرته أسبق من حدة بصره ، وهذا هو المعنى المستتر وراء المعنى الظاهر ، فالعرب حينما تقول " أبصر من عقاب " تعنى منفعتها منه فى الصيد والجلْب اعتماداً على حدة بصره ، وهذا هو ظاهر العلم " **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** .. " .. أما باطنه فهو أبعد من ذلك بكثير (وهذا ما تحدثنا عنه فى الفصل الثالث) .. فالعقاب فى كل صباح يعظ إبن أدم ويناديه فى صياحه قائلاً : فى البعد عن الناس راحة .. ولقد أوضح لنا ذلك نبى الله سليمان

عليه السلام والذى كان يفهم منطق الطير والدواب . ولقد جاء فى كتاب " الكامل " أن العقاب تبيض ثلاث بيضات فقط فى الغالب وتحتضنها ثلاثين يوماً ، فإذا خرجت فراخ العقاب الصغار ألقت الأم بواحد منها لأنها لا تستطيع إطعام الثلاثة ، وليس ذلك لقلة صبر منها كما يقول الكتاب ، ولكن ذلك لحكمة أخرى ، وهى أن طائر آخر يسمى " كاسر العظام " يتلقف هذا الفرخ الصغير فيعطف عليه ويربيه ويسعى للارتزاق من أجله بفضل الله ، وفى هذا اتساع لدائرة الحكمة وجلال الموعظة والتأمل فى بديع صنع الله وفى تحكُّمه فى دائرة مخلوقاته بشيء يدعونا للتفكير شئنا أم أبينا ، فإنه من اليسير على الله أن يرزق هذا الفرخ الثالث ولا تكون هناك مشكلة فى ذلك ، ولكن الله يريد منا التأمل والتفكير والتذكُّر والتعقل فى كل ما يدور حولنا .. ولعل هناك مواعظ أخرى وحكمة أرفع من ذلك لم نصل إليها بعد أو وصل إليها أولئك النفر القليل الذين أنعم الله عليهم بإحدى المحبتين " باطن العلم " ... وظاهر العلم فى هذه المسألة كما يبدو لنا أن الأم ألقت بإبنها ليتلقفه طائر أخر يرزقه الله برزق هذا المولود الجديد .. فمن يرزق الطائر الذى يتولى تربية المولود ؟! .. المسألة ليست بهذه البساطة .. المسألة أن هناك دائرة أوسع لحكمة أعلى ، وأطراف خيوط لم نلتمس منها بعد إلا القليل والقليل جداً .. وليست المسألة فى تسخير طائر من أجل آخر أو إنسان من أجل إنسان ... أو وجود أسباب ساقها الله لإتمام شئ بعينه ليصل الأمر فى النهاية إلى وضع معين .. فالله قادر على الفعل دون أسباب

ومسببات ودون وسائط أو دعامات ... المسألة أكبر من هذا بكثير .. ولعل العقاب الذى وضعنا فى هذا المأزق يزيدنا حيرة فوق حيرتنا عندما يصطاد شئ .

فهو إذا صاده لا يحمله على الفور إلى مكانه أو عشه ، بل ينقله من موضع إلى موضع ، وإذا صاد الأرانب يبدأ بصيد صغارها ثم الكبار فيما بعد، وهو يتغذى بأرض العراق ويتعشى بأرض اليمن .. ورغم بصره الحاد والذى يضرب به المثل فإن أكثر الأمراض التى تصيبه هو العمى ... ألم أقل لكم أن الأمر أبعد من كل ما نعلم .. إذا كنا نعلم ؟! . . فإذا ما أصاب العقاب العمى أخذتها أخواتها وتلمست لها عينا من الماء صافية .. فتقوم بغمس ريشها فينبت لها ريش جديد ، وتذهب ظلمة بصرها ، ثم تغوص مرة أخرى فى تلك العين فإذا هى قد عادت مرة أخرى شابة كما كانت ، فسبحان الله القادر على كل شئ . وهنا نتساءل إذا كان الأمر كذلك .. فلماذا أعماها الله ثم أعاد لها بصرها بهذه الطريقة : الإجابة .. تأكيداً لعلم الله الباطن الذى لا يطلع عليه إلا من أرتضى .. وإلا لتركها الله دون أن تفقد بصرها ، ولا داعى لكل ما حدث ويحدث فى كل مرة .. وإن كان ظاهر العلم يقول: أن الله قادر على كل شئ .. ولكن هذا لا يحتاج إلى تأكيد !! . . فلماذا يحدث ما يحدث ... ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۞ إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا** ﴾ الجن/٢٦-٢٧ .

ويواصل أو تواصل العقاب " بالمعنى المذكر أو المؤنث " دروسها للإنسان فى كتاب " عجائب المخلوقات " لنجد ما نصه :" ومن عجيب ما ألهمته ، أنها إذا اشتكت أكبادها أكلت أكباد الأرانب والثعالب لتبرأ .. وهى تأكل الحيات إلا رؤوسها والطيور إلا قلوبها ... فسبحان الله .

ويقول أيضاً : ومن شأنها (العُقاب) أن جناحها لا يزال يخفق (أى لا ينقطع خفقانه) وهذا ما دعى عمرو بن حزم أن يقول بيت الشعر الذى قاله فى عفراء تشبها بالعقاب .

وهنا يمر بالخاطر سؤال سريع .. قد يكون فيه شئ من الخيال أو المبالغة فى تحليل الأمور دون مبرر واضح ، ولكنه على أية حال سؤال يمكن طرحه وهو : هل لأن العقاب أحلَّ لنفسه أكل أكباد الأرانب .. جعله الله فى ذات الوقت يرمى فلذة كبده (إحدى فراخه)؟ ... هل هذا توازن فى الثواب والعقاب(هنا بمعنى الذنب وليس الطائر نفسه) ... وهل القسوة التى تملأ قلبه حينما يأكل الأخر هى نفسها التى تجعله يلقى بفلذة كبده إلى حيث لا يعلم فتتلقفه يد القدر فى صورة طائر " كاسر العظام " والواضح من إسمه أن لا رحمة ولا قلب له ... وهل يصبح هذا الطائر الأخير " كاسر العظام " هو الأم الرؤوم والقلب الحنون على من فرّطت فيه أمه ولفظه قلبها ؟!! ... الإجابة لا علم لى بها .. إنه مجرد سؤال .. ولا يعلم الغيب إلا الله.. والإجابة فى علم الغيب ... سر من أسرار علاّم الغيوب لا يُطلع عليه أحد

إلا من إرتضى !.. ولكن أعود فأؤكد أن دائرة الرحمة والحكمة الإلهية أوسع من كون العقاب لا صبر له كما يقول كتاب " الكامل " ، وليست المسألة من قبيل عدم قدرة العقاب على إطعام ثلاثة ، فالذى يرزق إثنين قادر على أرزاق ثلاثة وأكثر .. ولكنها الحكمة التى لا تغنى عنها النذر !!

ويواصل العقاب الدرس لعلنا نستقى منه ، فيقول الإمام بن عباس رضى الله عنهما : أن سليمان عليه السلام لما فقد الهدهد دعا بالعقاب سيد الطير وأشده باساً ، فقال : علىّ بالهدهد الساعة ، فرفع العقاب رأسه وطار يبحث عن الهدهد حتى إهتدى إليه .. فقال العقاب للهدهد : الويل لك إن نبى الله سليمان حلف أن يعذّبك أو يذبحك ، فقال الهدهد : ما قدرى وما أنا أو ما إستثنى نبى الله ؟ ...قالوا بلى ، قال : أو ليأتينى بسلطان مبين . قال الهدهد : نجوت ورب الكعبة . فلما دخل على سليمان رفع رأسه وأرخى جناحيه.. فقال : يا نبى الله أُذْكر وقوفك بين يدى الله بمنزلة وقوفى بين يديك .. فاقشعر جسد سليمان وإرتعد وعفا عنه . فأين تذهبون يا من تعتقدون أن أرزاق الناس بأيديكم .. ورقابهم مفصولة بكلمة منكم .. وإثم قلوبكم الذى ملأ الأرض يزدكم غطرسة على غطرسة .. أين تذهبون ما من تأخذون بظاهر العلم وتستحبونه تقرباً للناس من دون الله .. فأين تذهبون يا من تجعلون الناس يفقدون الأمل فى كل شئ .. تُحْبطونهم .... تصدونهم .. تمنعونهم ... توقفونهم .. تعرقلون كل مسير ... ألم تروا كيف يرد الله البصر للعقاب بعد ضياع .. ألم تروا كيف يرزق الوليد الذى ألقى به إلى

حيث لا يعلم إلا اللـه .. ﴿ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَـا أَنَّكُـمْ تَنطِقُونَ** ﴾ . الذاريات /٢٣

ولنهبط من أعلى ونـترك العقـاب ، ونـنزل إلى الأرض لـنرى الحكمـة والوفاء والعظة فى حيوان آخر يشتم الناس بعضهم بعـض بـه ، ويصفونـه بمـا ليس فيه ، بل ويرمون بعضهم بخصال السوء التى يرونها فيه وهو برئ .. إنـه الكلب .. وللحارث بن صعصعة قصة مع هذا الحيوان الوفـى الأبـى الـذى لا يخون أبداً ، ويا ليت الإنسان كذلك .. ولكن هيهات .. هيهات !!

فقد كان للحارث نُدماء لا يفارقهم ، وكان شديد المحبة لهم ، فخرج للتنزه ومعه ندماؤه ، فتخلـف منهـم واحـد ، فدخـل علـى زوجـة الحـارث ، فأكلا وشـربا ، وزنـى بهـا ، فوثـب الكلـب عليهمـا فقتلهمـا .. فلمـا رجـع الحارث إلى المنزل وجدهما قتيلين فعرف الأمر فقال :

ومازال يرعى ذمتى ويحوطـــنى

ويحفظ عرضى والخليل يخـــون

فيا عجباً للخل يهتك حرمـــتى

ويا عجباً للكلب كيف يصون ؟!

فأنىّ لكثـير مـن النـاس بهـذه الطبـاع الحميـدة لهـذا الحيـوان .. وأيـن تذهبون يا مـن تخونـوا اللـه وتخونـوا أمانـاتكم ، وتخونـوا أخلاءكـم .. فـأين تذهبون يا من تهتكون الحرمات ، ولا تتمنعوا كما تتمنع الكلاب ؟! .. فأين

تذهبون يا من لا ذمم ولا عهد لكم ، فالكلب يحفظ العرض والخليل يخون ..
فأين تذهبون ؟! فأين تذهبون ؟!





الفصل العاشر

إذا أخرج يده لم يكد يراها



إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا.. !!

لم يصَّدق أحدُ من العلماء أو لم يحاول الاعتراف بصدر رحب أن تكون أجيال الدارسين منهم عبر القرون والألفيات الماضية ... لم يصدقوا أنهم قضوا حياتهم كلها يدرسون ما لا يمثل إلا جزء واحد من المائة ١٪ من الكون . ولعل الذى لفت إنتباههم أخيراً ، هو أنهم لم يجدوا مهرباً من الاعتراف بوجود المادة الظلماء التى طالما أهملوها . ففى أواسط الثمانينات، كانت المادة الظلماء " الحارة " وهى الجزء السريع مثل النوترينوات ، هى الخيار المفضّل لدى الفلكيين النظريين من حيث الدراسة ، ثم فى أواخر العقد بدت المادة الظلماء " الباردة " ، وهى الأكبر كتلة والأقل سرعة هى الخيار الأفضل لديهم ، وعندما قدّم القمر الصناعى الفلكى الشهير COBE نتيجته المهمة سنة ١٩٩٢ حول الاختلافات الدقيقة الموجودة فى درجة حرارة الكون فى الاتجاهات المختلفة ، توصل الباحثون من يومها إلى ما يسمى ب " الوصفة " ورشّة خفيفة من النوع العادى حسب تعبيرهم .

وحيث أنه ثبت خلال العشرين عاماً الأخيرة ، ومن خلال الأرصاد الفلكية أن ما بين ٩٠٪ إلى ٩٩٪ من الكون مادة ظلماء لا تشع ولا تعكس أى نور لأن القسط الأكبر منها مكون من مادة مجهولة تماماً ، فإنه بذلك يعنى أن ملايين المجرات التى درسها العلماء حتى الآن لا تُشكّل إلاّ أقلية صغيرة جدا قد لا تمثّل بأى حال من الأحوال باقى الكون الفسيح .

ولكن أبسط الإمكانات التى توافرت – تشير إلى أن المادة الظلماء كالمادة العادية مكونه من بروتونات ونوترونات وإلكترونات ،وهناك بالفعل عدد من النجوم الصغيرة جدا (حوالى جزء من الألف من كتلة الشمس لا تشع إلا نوراً أحمراً باهتاً يصعب رصده على مسافات معتبرة) ، كذلك يمكن اقتراح الثقوب السوداء والكواكب العملاقة والسحب الغازية الباردة التى ستبدو كلها ظلماء لعدم إشعاعها .

ما علاقة كل ما سبق " وهو مختصر جدا بالطبع " بموضوع هذا الفصل الذى يشير إلى الظلمة والظلام . العلاقة واضحة تماماً حيث أن المادة الظلماء الموجودة والتى تمثل نسبه إلى ٩٠٪ إلى ٩٩٪ التى ذكرناها لها بلا شك وبكل تأكيد تأثير كبير جداً جداً فى مستقبل الكون ، فإذا تأكد أن نسبة هذه المادة هى بالفعل ٩٩٪ مثلاً فإن كتلة الكون ستكون فى الحقيقة ١٠٠ مرة أكبر مما نراه ، وعليه فإن الجاذبية المضاعفة للكون سوف تتمكن من توقيف توسُّعه بعد عشرات الملايين من السنين وربما تحويله إلى تقلص حتى الإنهيار ، وكذلك عمر الكون الماضى الذى نستنتجه من القياسات اليوم يعتمد بشكل مباشر على كمية المادة الموجودة ؛ وبالتالى فقد يكون الكون مخلوق من ١٢ أو ١٥ مليار سنة وليس عشرة مليارات سنة ...وذلك حسب قول واجتهاد وتفسير العلماء...والله أعلم !!

فماذا عن علاقة المادة الظلماء بالإنسان ..أو بمعنى أدق بحياة الفرد اليومية المعيشية ... الظلمة الكونية التى رأيناها حسب ما قاله ويقوله العلماء

لا تعدو كونها اجتهادات – ودراسات قابلة كل يـوم للتعديـل والتبديـل بـل وإلى النفى ، وعموما فإنهم يدرسون الكتلة والطاقة وسرعة حركـة المجرات وموقع الشمس وبُعدها عن تلك المجرات بعدد السنين الضوئية ...الخ مـــن التفسيرات المادية البحتة التـى تعتمـد علـى أدلـة ومعـادلات رياضيـة بعضهـا صحيح والآخر كثيرا ما يخطئ لأن الفلكيين لاحظوا أخيرا أن النجوم الطرفية " الموجـودة فـى الأطـراف " تـدور بسـرعات لا تقـل عـن سـرعات النجـوم الداخلية ، مما أدى بهم إلى استنتاج كتلة للمجرة أكبر ممـا نـراه ، أى وجـود مادة ظلماء بحجم غير الـذى يتصورونـه .. مـا المسألة إذن.. وكيـف يمكـن الحكم عليها ؟!! ..

المسألة صوَّرها لنا ببساطة شديدة الكاتب العلمى **تيموثـى فـرس** فـى كتابه الرائع " القصة وما فيها " وجسَّم فيها فكرة المادة الظلماء فى الكـون ، فهو يلخص لنا تشبيهه الجميل ببساطة : المادة الظلماء هى " التـاج الأسـود " فى الكوسمولوجيا " علم الكون " الحديث . أمّا نحن وبعيداً عمـا قالـه وغـيره من علماء " علم الكون " ، فإننا نتساءل هل يؤثـر هـذا التـاج الأسـود .. أو بمعنى آخر هل تؤثر المادة الظلماء بنسبتها الكبيرة التـى ذكرناهـا علـى طبيعـة النفس البشرية لما لها من ارتباط أكيد بمجال الكوكب الذى تعيش فيه ، وهو جزء من هذا الكون الفسيح ؟!

ليكون السؤال بطريقـة أخـرى .. مـاذا عـن ظلمـة النفـس أو ظـلام النفوس بعد ما رأينا ظلمة الكون ونسبته الغالبة على ما عداها ؟! .. وبطريقة

ثالثة يكون السؤال .. لقد رأينا الظلمة الكونية المادية .. فهل من علاقة بينهـا وبين الظلمة النفسية أو الظلام النفسى إن صح التعبير ... ؟!!

هذا ما جعلنى أختار عنوان هذا الفصل " إذا أخرج يده لم يكد يراها " وهى الآية رقم ٤٠ من سورة النور وفيها يصـوِّر اللـه تعـالى حـال نفـوس الكافرين وأعمـالهم ومـا آلـووا إليـه فـى حيـاتهم وضيـاع أعمـالهم كسـراب بقيعة .. يقول تعالى ﴿ **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْـرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَـاهُ مَـوْجٌ مِـنْ فَوْقِـهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَـدَهُ لَـمْ يَكَـدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِـنْ نُـورٍ** ﴾ النـور/ ٤٠ .... ولعـل الظلمة هنا أشد وأوقع من الظلام الكونى البعيد ... فهو لا يـرى يـده وهـى التى تستطيع الحركة والاقتراب حتى تلمس العينـين .. فمـاذا يمكـن أن يـرى بعد ذلك إذا لم يستطع أن يرى يده ؟!! ... ثم إن اللـه تعالى قد أخبرنا أنهـا الأقرب للإنسان من أى عضو أخر حينما ذكر فـى سـورة "ق الآيـة ١٦".. ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ .. والمعلوم أن الوريد جزء مـن اليـد (ويوجـد فـى أمـاكن أخـرى بالجسم) ، وحينما يقول اللـه : ونحن أقرب إليه مـن حبـل الوريـد .. يعنـى هذا أن حبل الوريد كجزء عضوى مادى هو الأقرب إلى الإنسان بعـد قـدرة اللـه تعالى ، فإذا لم يكد الإنسان يرى يده .. فأى ظلمة بعد هذا ؟!!

من هنا نبدأ مؤكدين أن ظلمة النفوس أشد سواداً من ظلمة الكون.. وأن ظلام النفوس أوقع من ظلام الفضاء الخارجى الذى لم يكتشف الإنسـان

منه (حسب رأى العلماء) سوى ١٪ فقط مما يمكن التحدث فيـه حتـى الآن .. والقرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا مـن خلفـه لم يـترك الظلمة والظلام بل عبر عنهما أحسن تعبـير ، دون خلـط قـد نظنـه نحـن بـين الظلام والليل .. فالأعمـال الخـيرة الجليلـة تحـدث وحدثـت بـالفعل بـالليل ، والمشاعر النبيلة والعواطف السـامية لا تظهـر غالبـاً إلا بـالليل ، بـل تجـد فـى رحاب الليل وجماله وجلاله ما يجعلها تنمو وتتأجج .. فـالليل فـى القـرآن لا يعنى الظلمة أو الظلام ، المرادفات اللغوية لا محل لها هنا : فالليل فـى القـرآن ليس مرادفاً للظلام والعكس ... ولذلـك لا يجـوز بحـال مـن الأحـوال مهمـا اختلط الأمر علينا أن نُدْرِج لفظ الليل تحت عباءة الظلام ذلك الرداء الأسـود الذى له معانى أخرى كثيرة ليس الليل من بينها ولا يمكن أن يكون !!

ففـى الليـل كـان الإسـراء ﴿ **سُبْحَانَ الَّـذِي أَسْرَى بِعَبْـدِهِ لَيْـلاً مِـنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِـنْ آيَاتِنَـا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ الإسراء /١... ولاحظ استخدام لفظ الليل وانتهـاء الآية بلفظ الجلالة "البصير " !! .. والليـل هـو وقـت التسـبيح ﴿ **وَمِـنْ اللَّيْـلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ** ﴾ ق/ ٤٠ !! .. والليل هو وقـت للعبـادة . ﴿ **وَمِـنْ اللَّيْـلِ فَتَهَجَّـدْ بِـهِ نَافِلَـةً لَـكَ عَسَـى أَنْ يَبْعَثَـكَ رَبُّـكَ مَقَامًـا مَحْمُـودًا** ﴾ الإسراء/٧٩ .. وفى الليل يكون السجود ﴿ **وَمِنْ اللَّيْلِ فَاسْـجُدْ لَـهُ وَسَـبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً** ﴾ الإنسان ٢٦.. .. وفى الليل يكون الاستغفار ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ الذاريات ١٧-١٨ .. وفـى

الليل تكون تلاوة القرآن ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ آل عمران ١١٣ .. والليل برهان قاطع ودليل ساطع على وجود الله سبحانه والاستدلال عليه من تجربة سيدنا إبراهيم ليلاً ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ الأنعام ٧٦ .. وفى الليل أيضاً تكون الدعوة كما فى النهار لا تنقطع بحلوله ولا يُركن للراحة دائماً فيه ، كما فى تجربة سيدنا نوح عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴾ نوح/٥ .. بل جاء الليل قبل النهار فى هذه الآية ليوضح أن الدعوة لا يمنعها حلول الليل ..

هل اتفقنا إذن أن الظلام غير الليل ، وأن ظلمة الليل لا تعنى تلك الظلمة التى يرتكب تحت جناحها الأعمال المنكرة والانفعالات الآثمة .. إذا كنا قد اتفقنا فلنبدأ إذن النظر إلى اللوحة الفنية التى رسمها القرآن العظيم عن الظلام والتى يمثل اللون الأسود فيها عنصراً أساسياً من عناصرها .. فحينما يتحدث عن المنافقين ، وما انطوت عليه نفوسهم كفراً وضلالاً فإن اللوحة تكون رمزاً وإيحاءاً يعكس المعانى النفسية ويصور المشاعر الدينية فى ترددها وضياعها وإرتكاسها إلى الكفر ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۞ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ البقرة ١٦-١٧ .. لقد بدّل هؤلاء الناس نعمة الهدى ، ولبسوا لباس الضلال

وإرتدُّوا إلى الكفر فعاشوا فى ظلمات لا يبصرون ولا يهتدون ، فهم مضطربون فى معيشتهم يتخبطون فى ظلام مقيت لا آخر له ..

وينتقل القرآن العظيم إلى مشهد أخر داخل هذا اللوحة الفنية التى يمثل السواد عنصرها الأساسى ، فيقول ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ البقرة /١٩ .. فلا زالوا يتخبطون فى دياجير الظلام "وليس الليل لاحظ هذا" - عميت أبصارهم وأظلمت نفوسهم وضلّت الحياة بهم طريقها .. فظلام نفوسهم جعل الطبيعة تثور عليهم ، مثل الرعد والبرق والصواعق والزلازل .. الخ من مبشرات ثورة الطبيعة التى تطالعنا على فترات متقاربة مثلما يحدث لنا هذه الأيام .. دون عظة ..!!

فهل الظلام الكونى الذى بدأنا الحديث عنه فى بداية هذا الفصل أشد قتامة من ظلام النفوس .. وهل العلم الظاهر الذى وصلوا إليه حينما قالوا أنهم لم يكتشفوا سوى ١٪ من الكون حقيقة أم هو من قبيل اللهو .. أو هو أقصى ما وصلوا إليه ؟! ... ﴿ **قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ النمل / ٤٠ ...

فالعلوم الكونية أو الوصفة المثالية التى يتحدث عنها العلماء والحديث عن المادة الظلماء البارد منها والساخن لا يمثل إلا قشوراً .. فأين هؤلاء من

علم الكتاب .. وحتى الآية تقول ﴿ **الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ** ﴾ .. لاحظ مِنَ هذه .. لم تقل الذى عنده علـم الكتـاب ليكـون العلـم كـاملاً .. ولكـن قالت ﴿ **الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ** ﴾ أى جـزء يسـير .. فـأين تذهبـون يـا هؤلاء ؟! فأين تذهبون ؟!

ثم نلتفت لنقارن أيهما أشد قتامة وإظلاماً بافتراض "جدلاً" أننا علمنا الكثير عن ظلمة الكون الماديـة .. أيهمـا أشـد قتامـة ظلمـة الكـون أم ظلمـة النفس ؟ .. أعتقد الأخيرة كما أوضحنا .. والله تعالى أعلـم .. وهنـا أقـول لهولاء المنافقين والذين كذبوا ويكذبـون علـى اللـه ليـل نهـار ويسـعون فـى الأرض فساداً ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ؛ فتزداد نفوسـهم ظلامـاً وإظلاماً .. أين تذهبون .. أين تذهبون ؟!



الفصل الحادى عشر

فأتِ بها إن كنت من الصادقين



فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ ؟!

السحرة يؤمنون .. والسادة وكُبراء القوم لا يؤمنون.. السحرة حينما يروا الآيات أمام أعينهم لا يترددون ، ويدفعون أرواحهم ثمن إيمانهم بتحقق الآية .. والسادة والكبراء وأصحاب السلطان لا يؤمنون حتى ولو جئناهم بكل آيات الدنيا .. السحرة يقولون في النهاية ﴿ **إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ طه /٧٣ .. والسادة لم ولن يؤمنوا حتى يأتيهم عذاب يوم عظيم. ونحن لسنا بصدد إعادة القصة وما حدث بين موسى والسحرة ، ولكنى آثرت أن أتخذها مدخلاً للمقارنة بين قوة الإيمان مع إنسان مفسد كما جاء بنص القرآن (وأعنى الساحر) وبين إنسان آخر من المفترض أن يكون من المصلحين ، أو هكذا ولِدَ لنراه ونحكم عليه بذلك ولو ظاهرياً ..

وإذا كان الله قد قال وقوله الحق فى شأن السحرة ﴿ **وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** ﴾ .. وكذلك قوله فيهم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ .. فإن كل السحرة الذين حضروا معجزة موسى حينما ألقى عصاه أمنوا واستغفروا لذنوبهم ﴿ **وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ .. وكان ردهم الطبيعى حينما رأوا الآية بأعينهم و لم ينكروها أو يحاولوا إنكارها .. كان الرد الطبيعى ﴿ **قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** ﴾ .. إذن ثبوت الآية ، ووضوح البرهان كافيان لإقناع

الإنسان الـذى يرى ويسـمع ولـه بصـيرة .. فلمـاذا لا يؤمـن هـؤلاء السـادة والكبراء ويجادلون ويُفتْون فى أمور ما أنزل اللـه بها من سلطان ؟!!

السادة الذين يُفْتون بنقل الأعضاء من إنسان إلى آخر بدعـوى الرحمـة ودعوى المعالجة ، ودعوى إنقاذ حيـاة إنسـان فـى حاجـة إلى هـذا العضـو أو ذاك ، ما يتبعون إلا الظن ومـا تهـوى الأنفـس .. ﴿ **وَإِنَّ الظَّـنَّ لاَ يُغْنِـي مِـنْ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾ ... وحقيقة هوى أنفس هؤلاء القـوم أنـه هـوى أنفـس غـيرهم وهذه مصيبة، فهوى النفس الذى يأتى من داخلها يحاسب اللـه عليـه صاحبـه بعقاب معلوم، وعلى الإنسان أن يتحمـل تبعـة مـا أسـرف وأسـلف فـى حـق نفسه .. وربما غفر اللـه له وتـاب عليـه إذا أتبـع السيئة الحسـنة أو تـاب مـن قريب ، ولكن أن تتبع هوى نفس الآخرين لسـبب أنـت تعرفـه ولغـرض فـى نفسك أو فى أنفسهم ستستفيد أنت بالطبع منـه فهـذه هـى المصيبـة والطامـة الكبرى .. ولقد حاولت الربط بين السـحرة فـى قصـة موسـى عليـه السـلام وهؤلاء القوم أقصد عليه وسادة القـوم اليـوم فـى كـل بـلاد الدنيـا ، لسـببين رئيسيين .. الأول : أن هؤلاء القوم ألعـن وأضـل سـبيلاً مـن السـحرة الذيـن وصفهم اللـه تعالى بصفات منكرة . والثانى : أن الموضوع الـذى أتناولـه فـى هذا الفصل "نقل الأعضاء" به أية مـا بعدهـا أيـة مـن جنـس وظـائف الجسـم البشرى المأخوذ منه أو المنقول إليه العضو ، وهو نفس الحال فى قصة موسـى حيث أتاه اللـه بآية من جنس عمل السحرة ، وهى آية العصا التى تحولت إلى ثعبان . والآية الكبرى التى ترتبط تمام الارتباط وتلتصق بالأعضاء البشرية فـى

جسم الإنسان أى إنسان ، لا أقـول تجرى فـى العـروق مجرى الـدم ليكـون التشبيه قوياً ، وإنما بالفعل هى آية " الدم " أو البلازمـا والـذى بدونـه لا يحيـا ولا يمكن لأى عضو مهما كان فى الجسم أن يستمر بدونها .

فمن خصائص الدم (وهذا معلـوم للجميـع وخاصـة أصحـاب العلـم المتخصصين) أنه بمجرد خروجه من العروق وتعرضه للجو تحدث فيه تغيرات أهمها : أنه يفقد خواصه المناعيـة بسـبب مـوت مـا فيـه مـن الخلايـا المضـادة للميكروبات ، وبذلك يخلو الميدان للميكروبات وبعضها موجود فى تيار الدم مكوناً جبهـة داخليـة ، بالإضافـة إلى جبهـة جديـدة للغـزو الميكروبـى تكـون مستعدة آنذاك للهجوم من الخارج ... وتتغذى الميكروبات من الجبهتين علـى مكونات الدم وتتكاثر بسرعة فتتحول كل نقطة دم إلى مزرعة كثيفة لأنـواع الميكروبات المختلفة المسببة للأمراض والمفرزة للسموم . أما التغير الثانى الناتج عن سفح الدم أو ما يسمى بالتخثر أو التجلط يحدث نتيجة توقف فاعليـة مـا كان يحويه الدم فى تياره من مواد نافعة للتجلط ومن ناحية أخرى لتولد المواد البادئة لأول حلقة فى سلسـلة التفـاعلات التـى تـؤدى إلى تكويـن الجلطـة .. ونتيجة لهذه التغيرات فإن مكونات الدم (خلاصات غذائية نافعة ، خلايا مـن البروتوبلازم وهو مادة الحيـاة) هـذه المكونـات النافعـة تتحـول إلى مركبـات عضوية ضارة من الناحية الغذائية (حتى بعـد هضمهـا) لأنهـا بـالتحلل أولاً وبالهضم ثانياً تصبح مواد غريبة حتى عن جسم صاحبها ..فـإذا دخلـت تيـار الـدم (سـواء مباشـرة عـن طريـق العـروق .. أو عـن طريـق الامتصـاص مـن

الأمعاء) فإن الدم يعاملهـا كبروتينـات غريبـة بـل قـد يكـون لهـا نفـس تأثـير الميكروبات المسببة للأمراض حتى لو تم تعقيم هذا الدم المسفوح تماماً مـن أى ميكروبات دخيلة .. أما (وهنا الفرق) الدم الجـارى فـى العـروق فمعـروف أنه " ماء الحياة " إذ أنه يحمل فى تياره وفى مكوناته ذاتها كل مقومات الحياة بناءاً وأداءاً .. وهو يحتفـظ بكـل صلاحياتـه هـذه مـا لم يتعـرض للهـواء أو لمسببات التلوث الميكروبى أو التجلط ..

فى ضوء ما تقدم نـرى الفـرق بـين الـدم الجـارى فـى العـروق والـدم المسفوح أو المسفوك .

فماذا عن الأعضاء ؟.. الدم كما سبق أن قلنا هو ماء الحياة ، ينسـاب فى العروق فيعطى الجسم بكامل أعضائـه حيـاة كاملـة مُتّسـقة .. هـو وقـود الجسم ، ومـع ذلـك إذا خـرج مسـفوكاً أو بنـص القـرآن مسـفوحاً يتجلـط ويصبح فاسداً بل وضاراً .. ونقل الدم محلل شرعاً بالطريق المعروف لاستمرار الحياة طالما اتفقت الفصائل أما نقل العضو الذى يستمد حياته من الدم فـالأمر مختلف تماماً ، فإذا ما أضفنا اختلاف الحالة العضوية للفرد المنقول منـه العضـو عن الآخر المنقول إليه ، فإن الأمر يصبح من الناحية العلمية مثيراً للإضطراب، خاصة وأن الجهاز المناعى للفرد المسـتقبل قـد لا يقبـل نهائيـاً أو يقبـل بمنتهـى الصعوبة وبخسائر فادحة دخول عضو جديد؛ وقد ينتهى الأمـر بـالموت أو أن يعيش الفرد المستقْبِل للعضو الجديد فى حالة مرضية مستقرة لا هى حيـاة ولا هى موت ...

فلقد ثبت أن الجهاز المناعى " وهو جهاز مراوغ " لا يعمل فى فراغ بيولوجى ، حيث أنه فى منتهى الحساسية للمؤثرات الخارجية ، فما بالنا وقد دخل عليه دخيل ... أضف إلى ذلك أن العلاقة بين الجهاز العصبى المنتشر فى كافة أنحاء الجسم ومركزه المخ والجهاز المناعى يتأثران ببعضهما تماماً عكس ما كان يُعْتقد من قبل ... فإذا كان الجهاز المناعى فى حالة اضطراب نتيجة العضو الدخيل عليه ، فإن الجهاز العصبى بالتبعية سيتأثر حتما .. وهو ما تم التعبير عنه بأهمية وضرورة تناغم العقل والجسم لمقاومة التحديات الصحية الخطيرة التى تواجه الإنسان وأهمها قبول عضو من خارج الجسد مهما كان هذا العضو ... وقد برز هذا واضحاً تحت مسمى PNI وهو اختصار لفرع جديد من فروع الطب اختصار لـ PSYCHO Neuro Imm unology المكونات من ثلاث كلمات بمعنى (وتعنى النفس PSYCHO

وتعنى الأعصاب NEURO

وتعنى علم المناعة IMMUNOLOGY

فهل من الناحية العلمية الطبية يستطيع أى جسم أن يتقبل عضواً جديداً من خارجه ... اللهم إلا الدم وهو ليس عضواً بقدر ما هو ماء الحياة الذى ينساب فى العروق ، وبعد توحيد الفصيلة من المعطى إلى المستقبل وهذا ما لا يمكن أن يتوفر فى الأعضاء : فليس هناك مثلاً كبد من فصيلة A أو طحال من فصيلة B أو عين من فصيلة O ، .. بعكس الدم الذى هو وقود الحياة .. وهذا ما يمكن تشبيهه (إذا صح التعبير) بالبنزين الذى يقوم بتسيير

السيارة الصغيرة وهو نفسه يقوم بتسيير الشاحنة الضخمة .. ولكن لا يمكن لفلتر سيارة من حجم معين أن يعمل بسيارة أخرى ولو كانت مقاربة لها فى الطراز ... فما بالنا إذا اختلفت باقى المواصفات فى الطرزين وهذا أمر مؤكد .. فنقل الدم لا يمكن القياس عليه بنقل الأعضاء من الناحية العلمية ... وآية الدم الذى هو وقود الحياة معلوم للجميع وبدونه لا تعمل الأعضاء كلها .. أضف إلى هذا أهم خاصية فى الدم "**التجدد**" بمعنى أن نقل لتر من الدم من شخص إلى أخر سيتبعه بقدرة الخالق تجديد لتر مماثل فى خلال فترة وجيزة ... ولكن إذا نقلنا كُلية أو كبد من شخص إلى أخر فهل سيظهر كبد جديد أو كلية جديدة مكان الكبد أو الكلية المنتزعة ؟! .. الإجابة .. بالطبع لا .. فكيف ننزع ما لا نملك ، وما لا نضمن تعويضه يقينا بخبرة العلم وحكم المعرفة والتجربة وعلم الله الذى علمنا !! .. الدم أو الوقود إذا كان مسفوحاً أو خرج مسفوكاً لفترة قصيرة جداً يتجلط ويصبح خطراً وضرراً ومرتعاً للميكروبات وملاذاً للأوبئة ... فما بالنا بالعضو الذى يعيش ويتحرك بفعل هذا الوقود !!

ولأن يد الفطرة دائماً سبّاقة إلى الشفاء ، فقد أكد د. فرانز إنجلفنجر ، رئيس تحرير المجلة الطبية الإنجليزية السابق أن ٨٥٪ من الأمراض التى تذهب إلى الطبيب لمعالجتها ، يمكن للجسم أن يعالجها بنفسه دون تدخل طبى .. معنى هذا أن الجهاز المناعى يؤدى عمله على الوجه الأكمل حينما يكون الجسم فى حالته السوية حتى وإن دَاخله المرض .. أما أن يدخل عضو

جديد، فـإن الاضطـراب يصيبـه ويصيـب فـى ذات الوقـت العلاقـة المطلـوب تقويتها ما بين الجهاز العصبى ومركزه المخ والجهاز المناعى للجسم ككل .

فبداهة يجب توفير الحد الأدنى للمقاومة المناعية الجيدة بمنـع تدخـل أو نقل أى عضو جديد إلى الجسم فربما كان بقاء العضو الأصلى العليـل أفضـل من نقل عضو سليم إلى جسم يفترض لأول وهلة أنه لن يقبله ، وإذا قبله فلـن يقبله الجهاز المناعى الذى سـيفقد بـدوره العلاقـة الأكيـدة والوطيـدة بالجهـاز العصبى أيضاً ..

هذا من الناحية العلمية .. أما من الناحيـة الشـرعية فـإن مؤيـدى هـذا الرأى يفتحون الطريق أمام عصابات نقل الأعضاء بظاهر الرحمـة واللـه أعلـم بما فى نفوسهم !! فيا ليت الأمـر يتوقـف عنـد حـد أن تعطـى الأم لابنهـا أو ابنتها كُلية أو طحال أو غير ذلك .. إنما أصبح الأمر تجارة مثل تجـارة الرقيـق والهيروين والكوكايين وغيرها ... وبـدأت الألاعيـب كـأن يتـم تخديـر الفـرد المراد انتزاع عضو منه ، ثم تحت ادعاء أنه ميت أو فى حكـم الميت يتـم أخـذ ما يريدون منه بدعوى أنه لا فائدة ولا جدوى فى بقائه ، وكأنهم هم الذيـن يحددون الأجل وميقات الموت وعدد الموتى . وحتى نقطع الكلام بيقين البيان فلدينا مقال كتبته صحيفـة " النبـأ " المصريـة فـى عددهـا رقـم ٤٠٩ الصـادر بتاريخ ١٩٩٨/٤/١٩ ماذا يقول المقال ؟! تحت عنوان " نهب أعضـاء ٣٢٨ ألف طفل فى مصر تقول الصحيفة : اكتشفنا أن نسبة المعوقين تبلغ فى مصـر

١٣,٢٪ من مجموع السكان . وأن النسبة الكبرى من داخل هذه النسبة هم من مجهولى النسب .. أما لماذا فببساطة لأن كثيراً من هؤلاء الأطفال يولدون فى الليل الهمجى الذى نعيشه الآن لِيُلقواْ - كعلب السردين الفارغة - بين تلال النفايات ويكونوا أكثر عرضة لكل أنواع الأوبئة بسبب البرد وقائمة الحشرات الطويلة التى تقاسمنا الحياة .. وتواصل الصحيفة قولها : عصابة لتهريب الأعضاء البشرية !! وهذه قائمة الأسعار للأعضاء البشرية "المسروقة بالطبع من أطفال مجهولى النسب " : القرنية ب ٢٥ دولار والنخاع ب ١٢٥ دولار .. وهكذا قائمة طويلة من الأسعار لا تنتهى . انتهى المقال .

وأقول .. الآن هل عرف الذين شرّعوا وأجازوا نقل الأعضاء أى منقلب سينقلبون ؟ هل علم هؤلاء أبواب جهنم التى فتحوها على مصرعيها لتجار الأعضاء وتجارة الأعضاء ؟ هل علم هؤلاء السادة الكبراء ما اقترفته أيديهم ؟! .. العصابات (وهم أقل جُرماً من أصحاب الفتوى) تتحجج أن الأطفال مجهولى النسب .. ولا ضير إذن فيما يحدث وأنا أقول : ألا يكفى أنهم جاءوا للحياة دون إثم أو ذنب اقترفوه .. إن ضمائر هؤلاء قد ماتت قبل أن يموت هؤلاء الأطفال .. : ألا يكفى أن إحدى الأطفال وتُدعى (حسب المقال السابق) شيماء حينما ذهبوا ليدفنوها ويعلم الله إذا كانوا قد انتزعوا أعضاء منها أم لا - لم يجدوا فى شهادة ميلادها اسم الأب فأعطاها الصحفى صاحب المقال اسمه حتى يتم الدفن " أعطاها اسم الأب "!! ... ثم تأتى الطامة الكبرى فى نهاية المقال " لمن أراد أن يعود إليه " ... أن تجّار

الأعضاء يتباهون أن مصر أصبحت تنافس دول جنوب شرق آسيا من حيث رخص أسعار الأعضاء المنقولة أو بمعنى أصح المنزوعة أو بمعنى أكثر دقة المسروقة .... وإنا لله وإنا إليه راجعون .

السادة الكبراء لم يتعظوا من إيمان السحرة وتصديقهم موسى ، ولم يؤمنوا بمعجزة الدم فى الإنسان كما آمن السحرة بمعجزة العصا ، ولم يؤمنوا بميلاد أطفال جاءوا للحياة دون ذنب فأفْتوا وشرَّعوا وأحلّوا وحرّموا واستباحوا لأنفسهم أن يفتوا فى أمور ما أنزل الله بها من سلطان !! .. وجرت وراءهم وسائل الإعلام والراقصين على كل الطبول يرددون فتواهم دون تمييز .. ﴿ **وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ** ﴾ الأحزاب/٦٧ .

ونسى هؤلاء السادة والكبراء أو تناسوا وتجاهلوا عن عمد أن يدرسوا وأن يستبينوا طريق الرشاد ... فاستكمالاً للفطرة وتطويع البديهة لتسييس العلم ، ولأن الفطرة لا تضل فإن الدم إذا تم نقله بعد معرفة نوع الفصيلة لا يحتاج إلى تدخل كيميائى حتى يأخذ الدم المضاف مجراه وينساب فى العروق ويختلط بدم المريض ... لماذا ؟! لأن طبيعة التخليق توافق على ذلك ! وما توافق عليه هذه الطبيعة لا يجب أن يرفضه العقل وعليه أن يقنن ما أملته هذه الطبيعة عليه ويتخذه سبيلا .أما نقل الأعضاء لو كان طبيعياً أو أن الفطرة ويد القدر أجازته فلماذا يخضع المريض المنقول إليه العضو لمعالجة كيميائية تطول

لتأتى بالسلب على باقى الأعضاء الصحيح منها قبل العليل .. أليس هذا بكاف لنعلم أن طبيعة التخليق ترفض هذه العملية !!؟

ثم تأتى الخاتمة التى تأتى على كل شئ .. ليخرج السادة الذين أفْتوا وحلّلوا وشرّعوا ليوهموا الناس أنهم على استعداد أو هكذا كتبوا وصاياهم ، بما يفيد بتبرعهم بأعضائهم بعد موتهم !! ... ونحن نسأل ... أى أعضاء يا هؤلاء ؟! وعلى أى شئ تتحدثون ؟! ... أولاً : هل اتخذتم عند الله عهداً أنكم ستموتون بكامل أعضائكم ؟ هل اتخذتم عند الله عهداً أن من سينفذ الوصية سيعثر عليكم أصلاً حين موتكم ؟! ثم هل علمتم أين ستموتون ، وما الحال التى ستكونون عليها وقت موتكم ؟ ... سبحان الله .... ثانياً : إن أعضاءكم التى تتحدثون عن التبرع بها أصبحت وأنتم فى سن متقدمة لا تصلح أصلاً للتبرع ... فماذا نحن فاعلون بكبد رجل جاوز السبعين ، وما فائدة كُلية لرجل ناهز الخامسة والسبعين أو امرأة فى نفس السن .. ثم هل هذه الأعضاء فى الأصل سليمة أم أنكم تريدون التخلص منها من الآن وتستحيون من إعلان ذلك ؟! ....سبحان الله ... ما هذا اللغط ... وما هذا السخط .. وما هذا الزمن الذى نعيشه ... إنه الزمن الردئ !

أيها السادة الكبراء ... أين ستذهبون من عقاب السماء ؟ فأين تذهبون كما قال القرآن العظيم فى سورة التكوير ... فأين تذهبون !!.. ربما أجد نفسى مدفوعاً للمرة الأولى للإجابة على هذا السؤال الذى هو عنوان

الكتاب ونهاية أى فصل فيه وكل فصل فيه .. أجد نفسى مدفوعاً بعد علمى ويقينى أنكم تعبدون أهواءكم وأهواء غيركم من دون الله ... لذلك حقت عليكم كلمات الله التى إليها أستند حتى أبرئ نفسى مما لا أستطيع الحكم فيه .. أقول لكم قول ربكم فى أمثالكم ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون ۞ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ** ﴾ المطففين/١٤-١٥... ولا يفوتنى أن أترك هؤلاء الرعاع الذين يبيعون أجزاء غالية من أجسامهم بحجة الحاجة إلى المال من أجل متاع رخيص وحجج واهية .. أجدنى مدفوعاً أيضاً قائلاً لهم قول ربهم فيهم ﴿ **أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ** ﴾ البقرة / ٦١ .. ثم ألتفت ساخطاً بكل ما أملك إلى تجار الأعضاء والقائمين عليها والوسطاء فيها والسماسرة والدخلاء بأى شكل كانوا ... فأقول لهم قول ربهم فيهم ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** ﴾ ... وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد !





الفصل الثانى عشر

إغتراب.. واقتراب



إغتراب .. واقتراب .. !!

الغريب من هو فى غربته غريب ... قالها أبـو حيـان التوحيـدى منـذ أكثر من ألف سنة .... والإغتراب هو جزء من الغربـة .... فالغربـة أوسـع معنى وأبعد مغزى ، وأطول باعاً ، وأقوى ذراعاً من الإغـتراب . والإغـتراب يرتبط غالباً بالمعنى المـادى الحسى الموضوعـى للمكـان والزمـان معـاً .. أمـا الغربة فمعها لا تشعر بأى من الأشـياء السـابقة ، فـلا مكـان لـك حتـى فـى نفسك ، ولا قيمة لمعنى الزمـن ، ولا معنـى حسـى ولا موضوعـى لأى شـئ حولك معك كان أو ضدك ... والغربة التى عبَّر عنه التوحيدى وصف فيهـا الغريب بأنه من كان إذا حضر كان غائبـاً ، ومـن غـاب كـان حـاضراً ... ليعبر بذلك عن عدم الإحساس بالذات والوجود وفقد كل شئ وأى شئ فى معناه وفى مغزاه وفى بدايته وفى منتهاه . ولأن البداية عنده مثل النهايـة فهـو يرى فى استخلاص آخر معانى للغربة والغريب وما يربطها ، أن الغريب هـو ما استغرقته الحسرات على كل فائت وأئب (من الإياب أى العودة) .

وما أتحدث عنه فى هذا الفصل تم تلخيصه كاملاً فـى هـذه السـطور القليلة ، فمجتمع اليوم هو بحال من الأحوال لا يزيد عن أسر مفككة مبعثرة بين هنا وهناك ، تبدو سعيدة أو تعيش على لهفة لقـاء السعادة التـى لا تـأتى أبداً... فالأب يعمل خارج البلاد ، فهو غائب ، ويمكـن حضـوره إذا حضـر الشيك الذى به النقود ، فهو غائب حاضر كما قال التوحيدى منذ ألف سنة

.. من إذا حضر كان غائباً ومن إذا غاب كان حاضراً ، فحينما يأتى الأب من رحلة السفر بعد عام أو إثنين فهو حاضر .. ولكنه خلال أجازة قصيرة يكون قد نسى حتى شكل أولاده وهيئتهم فهو حاضر بينهم غائب عنهم ... ما يلبث أن يجهِّز نفسه للسفر فهو غائب قريباً حاضر بعد شهرين حينما تصلهم أول حوالة بالبريد .. والأم فى عالم آخر لم تعد تتذكر أن زوجها هو ذلك الرجل الذى كان هنا منذ أسبوعين فهو طيف خيال أو أطلال لماضى كان جميلاً ويا ليته ما كان !!.... والأبناء حضورهم أيضاً غيبة فى معظم الأحوال ، يرون أبيهم كل عامين أو ثلاثة كضيف لا يهم أن يكون خفيفاً أو ثقيلاً لأنه سيرحل بعد أسبوعين على الأكثر .... يودعونه كما يودعون دادى !! ودادى أصبح صديق العائلة أو جارهم الحاضر ، أو صديقهم الذى سيحضر !! ... إغتراب ... إغتراب ... إغتراب .. مَن مع مَن ؟! ومَن ضد مَن ؟! ومَن أتى ورحل ؟ ومَن الذى مكانه الآن ؟! أين الأم بعد غياب الأب؟ وأين الأبناء بعد غياب الإثنين أو أحدهما فى أحسن الأحوال !

إقتربت منّى فى العشرين من عمرها ، وسألتنى بلطف .. هل تنتظر دورك فى الحجز ؟ لم أنتبه إليها فى أول الأمر .... كنت شارداً أُفكّر فى تطويع بعض سطور كتاباتى التى آراها حادة فى كثير من الأحيان !! كررت السؤال .. إنتبهت لها هذه المرة ... وكان صدى سؤالها لا يزال فى أذنى رغم شرودى فى المرة الأولى !.... نعم أنتظر الحجز ... أجبتها بعفوية ، رغم أنى لم أكن أعرف ماذا تقصد ، وعلى أى حجز تتحدث ، لكننى

وجدت نفسى أجيب هكذا بتلقائية لا أعرف لها سبباً حتى الآن ... سوى أننى كنت أريد مَنْ أتحدث إليه ... وقد وجدتها أمامى ، ودون عناء ... قالت وهى فى شدة الغضب وتكاد تقترب من البكاء : لقد حاولت وأحاول حجز تذكرة منذ أسبوعين لدخول الفيلم ، ولكننى لم أستطع بسبب شدة الزحام ، ورغم أن سعر التذكرة سبعة جنيهات ألا أنها وصلت فى السوق السوداء عشرون جنيها ومع ذلك فأنا راضية ، ولكننى لا أستطيع الوصول إلى الشباك ! ... فهمت الآن ... إستوعبت الأمر وكان علىّ أن أجاريها بسرعة حتى لا أُظهر غبائى أو قلة حيلتى أمام فتاة أراها صغيرة رغم هيئتها التى تبدو أكبر من سنها بكثير . وهل تريدين منى أن أحجز لك .. هكذا بادرتها وبسرعة ... أجابت يا ريت وأكون شاكرة جداً لك هذا الصنيع ... لم أكن بطبيعة الحال قاصداً المرور من أمام السينما بغرض الدخول ، أو حتى إلقاء مجرد نظرة على الصور من الخارج أو حتى النظر إلى مبنى السينما نفسه ... ولكن زحمة المرور هى التى دفعتنى للمرور بهذه الطريقة من فوق الرصيف الملاصق للسيارات المتراصة فى مواجهة السينما .. ودفعنى الفضول للوقوف قليلاً لمشاهدة هذا الزحام الشديد ، فكان أن تلقفتنى هذه الفتاة وبهذه الصورة .. أشفقت عليها ، ويبدو أن نظراتى إليها وبحس الأنثى أعطاها الثقة فى أن تسألنى أنا بالذات من بين كل هؤلاء .. وضعت يدى على جيبى لأخرج حافظة النقود بطريقة عفوية .. فالمشهد " مشهد الزحام " لا يوحى أنه سيكون باستطاعتى الوصول للشباك ولا حتى فى اليوم التالى

... صاحت فيّ ... بتعمل إيه العشرين جنيه أهة وأنا متشكرة على موافقتك يكفى أنك ستزاحم لمساعدتى .. شعرت بالورطة وبأنه لابد من أن أدخل المعمعمة حتى لو كانت هذه الفتاة عمرها خمس سنوات وليس عشرون عاماً، فهذا شعور الرجل دائماً مهما صغرت أو كبرت الأنثى التى يضعها القدر فى طريقه لأى سبب كان ... نظرت للزحام ثم لها نظرة إسترحام عسى أن تعفينى ، فأنا فى الأصل لن أدخل السينما و لم آت إلى هذا المكان طواعية ، ولكن ماذا أفعل ... كان علىّ أن أتصرف .. بادرتها بسؤال عسى أن يفتح الطريق لأسئلة أخرى أجد بعدها سلسلة من الأسئلة والجدل أى جدل حتى لو كان عقيماً (ودائما الجدل عقيماً) حتى أتخلص من الموقف بطريقة الإستدراج ، ودون أن أسبب لها ألماً، فلقد رأيت فى عينيها أن دخولها هذا الفيلم كأنه دخول "الجنة !!" ... سألتها .. هل دخلت هذا الفيلم قبل هذه المرة ؟! .. كانت المفاجأة قالت : نعم هذه هى المرة الثالثة التى أدخله فيها ... ضاع منى ترتيب الأسئلة التى كنت قد وضعتها فى لحظات معدودة لأشغلها عن الأمر برمته ... ولكننى عاودت قائلاً : ياه .. هو حلو لهذه الدرجة!.. نظرت إلىّ هذه المرة بعين من الدهشة وأخرى من الحسرة وكأنها قد توسّمت فىّ أن أكون على نفس مستوى رومانسيتها أو وعيها أو درايتها أو حساسيتها ... لا أعلم أو ربما كل هذه الأشياء معاً ... أطالت النظر إلىّ ، وتوقف الحديث .... والتقطت أنفاسى رغم شعورى بالتقهقر أمامها على الأقل من وجهة نظرها ... بادرتنى هى بالسؤال بعد صمت طويل ... إسمك إيه ...

إسمى (....) ، وأنت أجابت (هايدى) .. شعرت الآن فقط أنى خرجت من كبوتى التى أحدثتها نظراتها لى ، رغم أنى لم أفر أمامها ، ولكنى كنت أشعر بما فى نفسها ... أحدث سماع أسمها فى نفسى إنقلابات تكتيكية صغيرة ، فأنا لا أحكم على الناس بأسمائهم ، والأسماء لا تعنى لى شيئاً بالدرجة التى يحسبها بعض الناس ، ولكن هناك إنطباعات خفية، أو إشارات لا شعورية يطلقها العقل من حين لآخر تجعله يرى الأشياء والأسماء بطريقة مختلفة وبدون وعى .. إسمك جميل .. قلت لها .. أجابت مش مهم الأسم دلوقتى ، وإن كنت أرى فى عينيك أنك تريد أن تعرف معناه ... آه والله يا ريت ... هكذا أجبت بسرعة لأنى كنت بالفعل سأسألها عن معناه ... قالت لا أعرف ... ولكنى أراك مندهشاً كأنك تسمعه لأول مرة رغم ما يبدو عليك من قدرة على الفهم وإدارة الحوار .. ومن أين لك بهذا الحكم ؟ .... أجابت : ألا تعلم أن للمرأة حاسة سادسة أقوى من الرجل... أجبتها : أنت لست إمرأة .. ضحكت ... وقالت : أقصد أن الفتاة أو البنت لها حاسة سادسة أقوى من الرجل ؛ تبادلنا الحديث . وضعت العشرين جنيه فى جيب قميصى جذبتنى بعيداً عن الزحام ... طلبت منى الإبتعاد إلى الرصيف المقابل ... فأجأتنى : لا أريد الدخول هذه الليلة .. فقط أريد التحدث إليك ... والى هنا سأعفيك عزيزى القارئ من طول الحديث الذى دار .. ولكنى سأتحدث عما يهمنا فى هذا الفصل عن الأغتراب لأقترب منها ومنكم ومن نفسى أكثر وأكثر ... تحدثنا قرابة الساعتين .. وهى فى غربة دائمة ... الأب خارج البلاد منذ ثمانى سنوات ... كان عمرها وقتها

إثنتى عشرة سنة ، لم تر أبيهـا خلالها سوى ثلاث مرات .... الأم خارج المنزل بصفة دائمة .... مع الأصدقاء .. ولم أسأل عن نوعية هؤلاء الأصدقاء هل هم رجال أم نساء ...لا يهم .. الأخوة كل واحد وواحدة فى حال .. تعانى من الوحدة القاتلة ... بقى على الامتحانات ثلاثة أسابيع ، هكذا قالت ولم أشتر كتب التيرم الثانى رغم أن ما أصرفه على السينما وأدوات الزينة أضعاف ثمن الكتب .... حاولت أن تجد من يساعدها على الخروج من وحدتها لم تجد....... تبحث عن صديق أو صديقة ... هكذا قالت ، ولكنهم كلهم ذئاب وكلهم مخادعون حسب تعبيرها .... ماذا تفعل .. سألتنى ... بكت كثيراً ... كانت صادقة ... فقط طلبت منى أن أفعل لها أى شئ يشعرها ويبعدها عن هذا العالم ... تريد أن تخرج من غربتها من وحشتها ... ومن وحدتها ... رغم الأخوة والأخوات (خمسة) ... تركتها وأنا أفكر على وعد منى بلقائها ، ولكن ماذا أنا فاعل فى أمر لا أملك له حيلة !!..

أهو الإغتراب الذى يقربنا من الحقيقة التى لا يمكن أن نقبلها ولكنها واقعة ... أم هو الإقتراب من النهاية المحتومة التى وضعناها بأيدينا ... كالعادة فى نهاية كل فصل أقول فأين تذهبون !! ولكن أقولها لمن هذه المرة ... للغائب الحاضر ؟ أم للحاضر الغائب ؟ أم للإثنين معاً ؟!!



الفصل الثالث عشر

فاعترفنا بذنوبنا



فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا .. !!

هى البداية للإجابة عن التساؤل الموجود فى الآية الكريمة ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ ..والبداية توصلنا بلا شك وبرحمة الله تعالى إلى التوبة الصحيحة .. فمن منا بلا ذنب ؟!! ومَن منا بلا خطيئة ؟!!

قال ذو النون " رحمه الله تعالى " : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ، وتضيق عليك نفسك من الندم والأسف :قال تعالى ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ التوبة /١١٨ ... وروى إبن مَدَويه عن أُبىّ بن كعب (رضى الله تعالى عنه) قال :سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن التوبة النصوح ؟فقال : هى الندم على الذنب حين يفرط منك ، فتستغفر الله بندامتك عن الحاضر فى نفس مكان المعصية ثم لا تعود إليه أبداً.

وفى تأخير التوبة ندم كل الندم وخطر ما بعده خطر على الإنسان – قال إبن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ القيامة/٥ .. إن تأخير التوبة – والاستمرار فيها يؤدى إلى الفجور .. وقد وردت مادة "توبة" بمشتقاتها المختلفة فى القرآن الكريم ما يقرب من التسعين مرة ﴿ عن المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ﴾ .. وهى من الناحية اللغوية تعنى : ترك الذنوب على أجمل الوجوه ، وهو أبلغ وجوه

الاعتذار ، أوهى الرجوع عن السيئات ومعصية الله تعالى إلى طاعته عز وجل . والتوبة شرعاً ترك الذنب لقبحه ، والندم على ما فرط منه ، والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة ، والإسراع فى التوبة والفرار إلى الله جاء على لسان موسى عليه السلام حينما خاطبه الله : ﴿ **وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى** ﴾ طه/٨٣ فرد موسى كما جاء بالآية ٨٤ من نفس السورة ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾ . والتعجيل بالتوبة جاء مؤكداً بلسان الحق فى سورةالنساء الآية/١٨ ﴿ **وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ .

ووجوب التوبة جاء بإجماع الكتاب والسنة وإجماع الأمة ... فيقول الله تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ البقرة /٢٢٢ ويقول تعالى أيضا : ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجِدْ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ النساء /١١٠.

وقوله تعالى :﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ الأنعام/٥٤ .

وقال تعالى أيضا :﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ النور ٣١ .

ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ الشورى ٢٥ .

ويقول تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ التحريم /٨ .

وهو القائل سبحانه فى حديثه القدسى ... يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم .

وفى السُنّة المطهّرة ما يُلزمنا بوجوب التوبة وإخلاص النية لله فيها ... عن معاذ بن جبل (رضى الله عنه) قال : قلت يا رسول الله أوصنى ، قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) " عليك بتقوى الله ما استطعت ، واذكر الله عند كل حجر وشجر وما عملت من سوء فأحدث له توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية "

وعن أبى حمزة أنس بن مالك الأنصارى خادم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لله أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاه"

وكما تقدم فإن بداية التوبة يسبقها الاعتراف بالذنب ، وإلاّ من أى شئ وعلى أى شئ سنتوب . ولقد جاءت الصورة الفنية القرآنية فى أبدع صورة ، لتصنع بين أيدينا ذلك الاعتراف الذى هو مفتاح التوبة وطوق النجاة

.. يقول تعالى﴿.... رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ غافر/١١ .. فالله نسأل رب العرش العظيم أن يوفقنا إلى السبيل الذى به ومنه نخرج ، وفيه نجد الإجابة عن السؤال الذى طرحناه ووضعناه عنوانا لهذا الكتاب .. فأين تذهبون ..!! لعل البشرى تأتينا بفضل الله وبرحمته " والبشرى مشروطة مثل المكافأة تماماً .. فلا مكافأة ولا أجر دون عمل طيب ونية صادقة وتوبة نصوح كما ذكرنا ... ولقد عبرّ القرآن عن البشرى أجمل تعبير ، وأوضح شروط حدوثها ، ولمن تكون ، والكيفية التى تكون بها وعليها .. جاء ذلك فى الآية رقم ٦٤ من سورة يونس .. يقول تعالى﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يونس

وقد أجمع غالبية المفسرين والعلماء وأهل الذكر : أن البشرى المقصودة فى الآية هى الرؤيا الصالحة التى لا تتنزل من عند الله إلا على من أفاض الله عليه برحمته ... ولتكن خاتمة هذا الكتاب "بمشيئة الله " ما يؤكد عبر كتب السيرة حقيقة البشرى الإلهية : من روايتين تضفيان سكينه على القلب وتزيح عن الصدور ما تنوء به حملا ... فلقد (اخبرنا) احمد بن محمد بن الحجاج قال : تفقهت للشافعى ولمالك ولا حمد بن حنبل رضى الله عنهم ، وجميع من يوصل إلى الفقه فاختلفت على أقاويلهم واختلافاتهم فى المسائل فأحببت أن آخذ بأصح أقوالهم فسألت الله تعالى أن يُرينى النبى

(صلى الله عليه وسلم) فى النوم ، فوقع فى روعى أنك سترى ليلة الجمعة ، فلما كانت ليلة الجمعة فى السحر وقد فرغت من وردى ، وقعدت على طهر منتظر المؤذن غلبتنى عيناى ، فوقع فى روعى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قادم على مدخل رجل بجرانى " من بجران " عليه طلياس وثياب بيض، فسلم وجلس ثم قدم النبى (صلى الله عليه وسلم) وسلم فسلّمت وقبّلت بين عينيه ، ورأيته على النعت " الوصف " الذى كان معى وعلى الصفة التى كانت معى ومعه جماعة من أصحابه ، فجلس وجلست بين يديه فسألته عن مسائل ثم إنتهيت إلى ما كان فى نفسى من الفقه ، فسألته عن مسألة فقال إنى على ما يقول هذا وأوْمَأ إلى الداخل قبله ، ثم سألته عن أخرى فقال على ما يقول هذا .. ثم سألته عن مسائل الاختلاف فكان يومئ بيده ويقول : على ما يقول هذا ، فوقع فى روعى أنه أحمد بن حنبل رضى الله عنه ... فقلت يا رسول الله لقد إُبتلىَ فيك فصبر ، فقال لى أنظر ما فعل الله به ، ثم التفت إلىّ فقال تصلى معنا الغداة ، فقلت يا رسول الله ما أحوجنى إلى ذلك فأقيمت الصلاة ، وتقدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فصلى بنا وهو يقول سلام عليكم ورحمة الله .. فسلّمتُ عن يمينى ثم انتهيت وأنا مستقبل القبلة .

(وأخبرنا) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ويحيى عن محمد بن إبراهيم العدوى أن أبى عمر وعبد الرحمن بن أبى وصافة عن أبى القاسم البزار قال : قال على ابن الموفق حججت نيفاً وخمسين حجة ، وجعلت ثوابها للنبى

(صلى اللـه عليه وسلم) ولأبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضوان اللـه عليهـم جميعـاً ولأبـوىّ ، وبقيـت حجـة واحـدة .. قـال : فنظـرت إلى أهـل الموقـف بعرفات وضجيج أصواتهم فقلت اللـهم إن كـان فـى هـؤلاء واحـد لم يتقبـل حجة وهبت له هذه الحجة ليكون ثوابها له قال : فبت تلـك الليلـة بالمزدلفـة فرأيت ربى تبارك وتعالى فى المنام .. فقال : يا على بن الموفق علىَّ تسخى قد غفرت لأهل الموقف ومثلهم معهم وأضعاف ذلك ؛ وشفعت كل رجل منهم فى أهل بيته وخاصيته وجيرانه وأنا أهل التقوى وأهل المغفرة ،

هكذا تكون البشرى لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم إهتدى ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى** ﴾ وتكون المكافـأة الأعظـم والثواب الأجزل والرضاء التام والنعيم المقيم حينما تزداد الصورة جمالا بفيض من رضـاء اللـه على أنـاس يختصهـم دون غـيرهـم ... مَـن هـم .. ومـن يكونون؟!! .. يقول تعالى فيهـم : ﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ .. فطوبى لمن تُقبل توبته .. واللـه نسأل أن نكون من هؤلاء .... واللـه من وراء القصد .

محيي الدين عبد المنعم



من سرق المصحف..!!

. . . ولأنهم قطعوا رأسها فقد أرادوا التمثيل بها ، فيلتفت الناظر أول ما يلتفت إلى باقى الأجزاء لعله يجد مفاجآت أخرى . . ولكن أى مفاجأة بعد ذلك!؟ . . إنها الأمانة الموؤدة فى طريقها إلى مثواها الأخير . . . ولكن هيهات أن يدفنوها ، ليس لأن أحدًا سيمنعهم ، ولكن لتكون شاهدًا لمن تسوّل له نفسه أن يتمسك بها ؛ فينظر ليجد الميراث منتهكًا ، والجثمان مشوَّهًا ، والحقيقة ضائعة ، والبرهان لا يمكن القيام عليه بحال . . فأى غربة أكثر من هذا !! . . لقد مزّقوا ثوب الأمانة ، وليتهم اكتفوا بهذا بل فعلوا ما هو أكثر ، فلا تعجب يا عزيزى الأمين : فأنت الحقيقة الوحيدة المشوَّهة . . ويلك ! إلى متى تنخدع ، وعندك أنك خادع ؟ وإلى متى تظن أنك رابح وأنت خاسر ؟ وإلى متى تدعى ، وأنت منفِى؟ . . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وقد صدر للمؤلف عن (دار الكتاب العربى) كتابان : « صناعة الإنهيار » و « إيران وأربكان وصراع الخلافة » . . وقد أثارا جدلاً واسعاً بين جميع القراء والمختصين على اختلاف توجهاتهم .

الناشـر

توزيع

